

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

ليالي تركستان

Turkistan's Nights

Dr. Naguib Al Keilany

عبد الرحمن

ليالي تركستان

د. نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٢٣١/٢٠١٢

الترقيم الدولي:
978-977-255-366-2



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

شخصيات الرواية

- خوجة نياز حاجى .
- الأمير .
- الأميرة .
- نجمة الليل .
- مصطفى مراد حضرت . . (تورسون اسم مستعار له) .
- منصور درغا .
- (الحاكم الصينى) .
- قائد قومول الصينى .

• شخصيات ثانوية

- خاتون .
- ضابط صينى له علاقة بخاتون .
- الجنرال شريف خان .
- قائد صينى قام بانقلاب ضد الحاكم الصينى .

- مدير عام المخابرات المركزية .
- ضابط صينى مستعمر له علاقة بنجمة الليل .
- الجنرال عثمان باتور : قائد الثوار فى مرحلة من مراحل الجهاد التركستانى .

●●●

الفصل [١]

نحن الآن فى مقاطعة «قومول»، وكانت الصين قد احتلت هذه المقاطعة، وبعد الاحتلال أصبح القائد الصينى للمنطقة هو الحاكم بأمره. . كل شىء يجرى على هواه، والحسرة تملأ النفوس، وتطل من العيون الحزينة، وأمير «قومول» المسكين يعيش فى قصره لا يتمتع إلا بسلطة اسمية، كنت أرى بعينى رأسي أفواج الصينيين تتدفق إلى الولاية. . أعنى مقاطعة «قومول». . وحكومتهم تمدهم بالأموال المنهوبة كى يشتروا الأرض، ويقيموا البيوت، وينشئوا المتاجر، كان عمرى إذ ذاك حوالى خمسة وعشرين عامًا. . حفظت القرآن فى المسجد، وتعلمت القراءة والكتابة باللغة العربية وبلغت البلاد وأنا أعرف الصينية أيضًا. . نحن نجاور الصين. . ويمكننى فى الوقت نفسه أن أتحدث بلغة أهل «منغوليا» القريبة منا، والواقعة تحت سيطرة الروس. .

هنا عاش جنكيزخان وأولاده. . وهنا قصص كثيرة عن البطولات فى كل فن ولون. .

وفى يوم من الأيام أصدر القائد الصينى منشوراً هز البلاد من أقصاها إلى أقصاها . .

هذا المنشور يلزم أى تركستانى بأن يزوج ابنته من أى صينى يتقدم لطلب يدها ، برغم اختلاف العقيدة . .

إن الاحتلال أمر مؤقت قد يزول فى يوم من الأيام ، والمعركة مع العدو كر وفر . . أما أن يدوس العدو مشاعر الناس ، ويحتقر شرائعهم ، ويسخر من دينهم فهذا أمر فوق الطاقة . .

واستدعى القائد الصينى أمير قومول المسكين وقال له :

- أيها الأمير . . لقد عزمت على مصاهرتك أنت بالذات . .

شحب وجه الأمير ، وارتعشت أنامله ، قال بصوت واهن :

- «أنت تعلم أيها القائد أن هذا مستحيل» .

قهقه القائد فى سخرية :

- «أنا لا أعرف المستحيل أيها الأمير» .

- «هذا أمر الله . . » .

- «لا دخل للآلهة فى شئون القلوب . . لقد أحببتها . . » .

- «لقد درج الفاتحون على احترام عقيدة أهل البلاد المفتوحة . . » .

- «هذه خرافات لا أؤمن بها . . » .

- «هذا أبشع من الموت أيها القائد . . » .

اكفهر وجه القائد وصرخ :

- «الأمر يخص الأميرة . . اذهب وأخبرها . . وأمامك بضع ساعات للتصرف . . » .

وخرج الأمير التركستانى لا يكاد يعى شيئًا مما حوله، إنها مهانة لا مهانة بعدها وبدا القصر لعينيه مقيتًا يوحى بالضيق والعذاب، كيف يقابل زوجته وأولاده، لم تعد للحياة قيمة، أيفر إلى الجبال يقتات الأعشاب، ويؤانس الوحوش، حتى لا يرى المأساة بعينيه؟؟ ما أتعس العاجز المظلوم!! والأمر أشد تعاسة عندما يمس أميرًا كان ذا شأن وسلطة ونفوذ لا حد له . .

ودخل الأمير قصره . . السيوف الأثرية تتدلى فى عناء والبنادق الفارغة ساكنة فوق الجدران كجثث الشياه المتعفنة، وتاريخ أجداد نائم فى أحضان الصفحات المتراصة التى غلفها الغبار . .

همست زوجته :

- «ما بك؟؟» .

رفع إليها عينين مبللتين بالدموع وقال :

- «إننى أنتظر أمر الله . . » .

لم تفهم شيئًا، فقالت :

- «أهناك ما يكربك؟؟ إننى لا أتوسم فى هؤلاء الصينيين أى خير . . » .

- إنهم لا يعرفون الرحمة .

- «صدقت . . » .

- «القائد يريد أن يتزوج ابنتى . . » .

ثم صاح كمجنون :

- «تعالى يا ابنتى . . أى فتاتى . . » .

ثم مسح دمعة أفلتت من بين أهدابه :

- «أميرتى الغالية . . الدب الأحمق يريد أن يتزوجك . . هذا مستحيل . . أتوافقين؟؟» .

قالت الأميرة الصغيرة وعيناها تدوران فى قلق ممتزج بالدهشة :

- «ما معنى ذلك يا أبى؟؟» .

ضحك الأمير التركستانى ووجهه محتقن كالدم نفسه :

- «هناك أشياء كثيرة الآن لا معنى لها . . الحياة نفسها لا معنى لها . . » .

- «لكنى لا أريده يا أبى . . » .

- هو يريد . . » .

- «عليه اللعنة . . » .

- «اللعنة تصيب المهزوم دائمًا . . » .

- «فى أية شريعة أو دين يفرض على الفتاة أن تتزوج برغم إرادتها . . » .

- «العلاقة يا فتاتى بين الغالب والمغلوب لا تلتفت للمبادئ أو الإرادة الحرة . . » .

ثم تلفت الأمير الحائر حواليه ، شعر أن الجو حواليه خانق يكاد يزهق أنفاسه ، كان يعبث بالفرش إلى جواره فى عصبية بالغة .

- «أتوافقين؟؟» .

- «الموت ولا هذا» .

- «لماذا؟؟» .

- «أمر الله فوق أمر الصينيين . . » .

وقف ثم احتضن الأميرة الصغيرة ، عيونها الجميلة توحى بالحيرة القاتلة ، وجهها النضر كالوردة ينطق بالرعب ، ثم شهقت باكية :

- «لا أتصور يا أبى . . لا أتصور أن تساق فتاة هكذا . . السير إلى ساحة الإعدام أسهل بكثير . . » .

جففف الأمير أهداب ابنته ، وربت على شعرها الناعم الأشقر ، ثم لامس خديها الورديتين فى حنان ، ثم وقف ودق الأرض بقدمه صارخًا : «لن يكون . . » .

قالت الزوجة بنبرات راعشة : «يجب أن تتدبر الأمر بحكمة . . » .

- «أعرف أنه لن يرضى الهزيمة . . » .

- «وسيتخذ إجراءات مشددة بالتأكيد . . أنت تعرف القادة الصينيين جيداً . . » .

- «آخر مدى يصل إليه . . ما هو؟؟ حياتى؟؟» .

طأطأت زوجته رأسها فى حزن . .

ونادى الأمير التركستانى قائلاً :

- «مصطفى مراد حضرت . . » .

- «أمر مولاى . . » .

ودخلت عليه دون أن أرفع نظراتى إلى وجهه .

- «مصطفى . . لتحضر أوراقًا ومحبرة وقلمًا . . » .

وجلس أميرنا يسجل رسالة قصيرة للقائد الصينى جاء فيها :

« . . . إن الأمر أيها القائد المنتصر يخرج عن دائرة تصرفى ؛ لأن ديننا يمنع ذلك ، ومن جانب آخر فإن ابنتى لا تفكر فى الزواج ، ومن ثم ترانى خاضعًا لاعتبارات عقائدية وإنسانية ، وإن الصين «العريقة» لا تقبل أن تهمل تقاليد جيرانها ، أو تتنكر لعقائدهم أو تهزأ من مشاعرهم . . وليست هذه القضية تتعلق بكبرياء الصينيين أو جيشها المنتصر ، إنها أمر ثانوى لا ينعكس عليها بالضرر بعد أن دانت لها البلاد ، وامتلكت مصائرها السياسية والمادية . . وصدقنى فإن أمرًا كهذا قد تكون له عواقب وخيمة ، تضر بالعلاقة التاريخية بين الشعبين الصيني والتركستانى . . ولو أمْعنا التفكير معًا فى آثار هذا القانون الذى يرغم التركستانيات المسلمات على الزواج من الصينيين ، لوجدناها بالغة الخطورة ، ولا أعنى بذلك التهديد ، وإنما أقصد مصلحة «الأصدقاء» . ، واستتباب الأمن فى البلاد . . وإنى لاستحلفك بكل عظيم ومقدس أن تعيد النظر فى هذا الأمر . . لعل جوانبها جميعها تتضح لديك . . مع أطيب تحياتى واحترامى . . » .

«أمير قومول»

وسرت الأنباء فى المدينة مسرى النار فى الهشيم ، وتخطت حواجز القصر المنيف ، وتهامست بها النسوة فى المنازل ، وتلقفها الرجال فى قلق وغيظ بالغين . . إن احتلال الأرض لفترة ما قد

يكون أمرًا يسهل الانتظار عليه حتى تحين الفرصة للخلاص، والعبث بشرفهم ومعتقداتهم أمر آخر يحمل فى طياته أشد أنواع الخطورة. . وعندما قرأ القائد الصينى رسالة الأمير التركستانى، وكنت أنا الذى حملتها إليه، كورها فى يده ثم رمى بها وبصق عليها. .

ثم اتجه صوبى قائلاً: «قل لمولاك إنه يعبث كما يعبث الصبية. . هذه قوانين «صن يات صن» أبو الصين الأعظم. . ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تبطل قوانينه. . ».

وأخذ مولاى الأمير فى الليلة نفسها إلى السجن. . ليلتها بكت المدينة كما بكت بالأمس على شهداء المعركة، وليلتها أدرك الناس أن الغزو الصينى يحمل فى طياته خطرًا آخر غير خطر غزو الأرض، وليلتها لم يستطع النوم فى «قومول» أن يستولى على جفون الرجال والعذارى، وشر البلية ما يضحك أن كل فتاة تحاول جاهدة أن تبحث لها عن رجل مسلم يتزوجها قبل أن تساق كالذبيحة إلى غازٍ من الغزاة الصينيين أو مهاجر من مهاجريهم. . أنا لي قصة ظريفة. . كنت قد أحببت فتاة تخدم فى القصر منذ عام. . كانت تتمنع على وترفض الزواج، وتطمع فى رجل أعلى مركزًا منى. . أنا مجرد حارس فى القصر. . والقصر يدخله علية القوم. .

وعندما سيق الأمير إلى السجن أتت إلىّ مهرولة والدموع تغرق وجهها:

- «مصطفى . . هأنذا بين يديك . . » .

كنت مغتمًا لمصير الأمير التعس، وأشعر بعزوف عن الدنيا وما فيها .

صرخت فى حدة في وجه الوصيفة .

- «إليك عنى يا نجمة الليل» .

- «ربما أكون قد أسأت إليك . . لكنى أحبك . . » .

صورة الأمير السجين تملأ خيالى ، من الصعب أن نتصور الأعزة الكبار يرسفون في الأغلال ، ويساقون كما يساق العبيد يا إلهى أنه مشهد لا يمكن أن ينسى مدى الحياة ومع ذلك فقد كان الأمير يمضى بين الزبانية الصينيين مرفوع الرأس ، يشمخ بأنفه فى كبرياء ، كان فى صمته ثورة ، وفى استسلامه عاصفة ، وفى نظراته الشاردة نداء دموى رهيب .

قالت حبيبتى القديمة :

- «لِمَ لا ترد يا مصطفى حضرت؟؟ ماذا تنتظر؟ سوف تندم حتى آخر حياتك إذا ما جاء صينى لئيم وضمنى إليه . . » .

قلت وكأننى أثأر لكبريائى الجريحة :

- «أنا أرفض الزواج الاضطرارى . . » .

- «أيها الأبله، إن فيه تحقيقًا لآمالك، وإنقاذًا لى، وحماية لعرضنا وديننا..».

التفت إليها، وقد بدت الدموع فى عينيها، وصحت:

- «لا تبك.. لقد أصبحت أكره النظر إلى وجوه الناس.. الدموع فى كل مكان.. هذه حياة لا تطاق.. اعلمى جيدًا أننى لن أتزوج إلا إذا خرج الأمير من سجنه..

اقتربت منى هامسة:

- «أيها المجنون.. انتهى عصر الأمير.. فلا تربط مصيرك بعالم يزول، ومجد ذاهب..».

أمسكت بذراعها ودفعتها فى عنف قائلاً:

- «هذه خيانة يا نجمة..».

- «أنت مخطئ يا مصطفى.. فأنا أحب الأمير وأسرته كما أحب روحى.. لكن لا معنى لأن ننتظر حتى تفوت الفرصة.. إن ذلك لا يرضي الأمير ذاته..».

وتركتها دون أن أبت فى الأمر، كان جو الحزن يخيم على قصر الأمير، وكانت زوجته تروح وتجىء كالمجنونة، تتنقل فى جنبات القصر الفسيح على غير هدى لا تأكل ولا تشرب، وأولاده وبناته

وأقاربه قابعون تلفهم الكآبة، أما ابنته الأميرة الصغيرة فقد وقفت فى صالة القصر المفروشة بالسجاد الثمين وقالت:

- «ماذا لو تزوجته وقتلته؟؟».

لم يلتفت لحديثها أحد، لكنها أخذت تلف وتدور، وترغى وتزيد حول هذه الفكرة، غير أن أمها ربتت على كتفها فى النهاية، وكانت امرأة عاقلة، وقالت لها:

- «الأمر أكبر من ذلك بكثير..».

فى اليوم التالى كانت الشوارع فى «قومول» تضج بمأس يقشعر لها البدن، وتشيب لهولها الرؤوس، فالشرطة يجرون الفتيات جرًا كى يرغموهن على الزواج من الجنود والمهاجرين، والآباء التركستانيون الرافضون تشوى السياط أبدانهم، ويضربون بكعوب البنادق، ويركلون بالأقدام فى ازدراء ومهانة، وكثير من الأسر والبيوتات العريقة تهرب إلى خارج المدينة، إذا ما جاء الليل، وتأوى إلى الجبال، أو تنطلق إلى الصحارى العريضة.

ومرت أيام كلها آلام وأحزان، وكان فى مدينتنا برجل شهير يقال له «خوجة نياز حاجى»، وهو من رجال الفكر والدين والوطنية، معروف بشجاعته وصدق بلائه، وكان الرجال فى «قومول» يذهبون إليه حاشرين مستفسرين.. فكان يقول:

- «أدوات النصر أنتم تعرفونها . . الصبر والصمود . . الجهاد حتى الموت . . لا جديد بعد كلمات محمد . . انظروا . . لا يفل الحديد إلا الحديد . . كل ما أعلمه أن أقوامًا بلا شرف . . هم موتى وإن كانوا يأكلون ويشربون ويتنفسون . . لا تستنكروا تصرفات العدو وحده، ولكن ابكوا على تهاونكم واستنكروا استسلامكم . . أتفهمون؟؟» .

لكن موجه الطغيان تمتد وتنداح . . وأصوات الاستغاثة تعلو ، والسياط تعلو وتهبط وتمزق الأجساد العارية ، والنسوة يسقن إلى الجند الغزاة . . والرجال يشعرون بالخجل والضعة والهوان . .

والجنود يقهقهون ويمرحون ويتحسسون أجساد النساء فى نشوة ولذة، وكأنما يفحصون ماشية معروضة للبيع . . وقومول تغلي كالمرجل ، ولا تجد متنفسًا لحقدها المكبوت ، وأميرها يعانى الوحدة والعذاب فى السجن . . وأنا العبد الضعيف «مصطفى مراد حضرت» ماذا أستطيع أن أفعل؟؟

قال لى «خوجة نياز حاجى» زعيم بلدنا الهمام :

- «يا مصطفى . . اذهب إلى أميرك فى السجن . . وقل له يجب أن يبحث عن مخرج . . » .

●●●

الفصل [٢]

الحق فى الدنيا لا يكاد يختلف عليه اثنان لكن انغماس النفوس فى الهوى قد يخلق من الباطل حقًا، ومن الحق باطلاً.

وأنا إنسان رقيق المشاعر برغم أنى أحد رجال الحرص فى القصر، أدنى إساءة تملأ كيان بالغضب، والسخرية منى تحيلنى إلى طوفان من النقمة، حتى الوصيفة الساذجة التى أحبتنى بالأمس، كانت تسخر منى جعلتها تغير رأيها، والتى تغير رأيها هل تتغير مشاعرها أيضًا؟؟.

صدقنى.. أنا لا أعرف، فقد كانت الدنيا هائجة مائجة، و«قومول» ليس فيها شىء على حاله، الصينيون يرون الزواج من بناتنا حقًا لا غبار عليه، وحجتهم ساذجة وبسيطة، ألا وهى أن الناس جميعًا إخوة، وإنهم منتصرون، ويرون من الرحمة أن يأخذوا نساءنا فى ظل القانون بدلاً من أن يأخذوهم كسبايا وغنائم، والأمر من وجهة نظرنا نحن -التركستانيين- ظلم فادح، وإذا لم

يكن الصينيون يريدون أن يتحكموا لكلمات الله فلا مناص من الحرب.. أعنى لا بد أن نساق إلى الموت.. فالحرب انتهت بهزيمتنا.. وبرغم الحصار الشديد الذى أقامه القائد الصينى حول الأمير، إلا أنه كان يسمح لبعض رجاله وخدمه بزيارته، لعلهم يجدون الفرصة فيقنع ويزوج ابنته الأميرة من القائد، وكان الأمير معتكفًا فى سجنه يصلى ويفكر، آلمه أن يتنكر له الزمان، ويتحول من قصر إلى سجن، ومن آمر إلى مأمور، وممن يتلقى أوامره؟ من رجل كافر لا يؤمن بالله ولا برسوله، واسألنى أنا عن أحزان الملوك المنهزمين.. إنهم لا يبكون إلا لمامًا.. لكنهم يحبسون آلامهم فى قلوبهم فتثور وتهدر كطوفان نارى لا يرحم.. ذهبت إليه حائرًا وفرائصى ترتعد كلها...

- «ما الذى أتى بك يا مصطفى حضرت..».

- «نحن بدونك لا نساوى شيئًا..».

- «أنتم رجال، وتلك حكمة الله..».

- «والرجال يريدونك يا مولاى..».

- «كيف؟؟».

ونظر إلىّ باستغراب ودهشة فأجبت:

- «قالها لى خوجة نيازى حاجى..».

- «ماذا قال . . » .

- «الأمير يجب أن يخرج إلينا . . » .

ضحك الأمير وشد عوده الفارع ، وتطلع إلى الآفاق بعينى صقر جريح وهتف والحنق يأخذ بتلابيبه :

- «لست أملك مفاتيح السجن . . » .

- «للسجن جدران يا مولاى . . » .

ضحك الأمير فى عصبية :

- «وكيف أحطمها وحدى؟» .

- «يقول لك خوجة نياز . . إذا لم تكن تمتلك المفاتيح التى تفتح بها السجن ، ولا السواعد التى تهدمه . . فإن لك عقلاً يستطيع أن يحملك على جناحيه إلى الخارج . . » .

صمت الأمير برهة ، ثم التفت إلىّ وقال :

- «حسنًا . . اذهب إلى خوجة نياز وقل له إن الأمير قادم غدًا . . » .

عودنى الأمير الصدق فى القول ، ما خدعنى قط ، لهذا هرولت إلى الخارج ، وحملت رسالته إلى خوجة نياز ، كان خوجة نياز يجلس خارج المدينة بين عدد من الرجال يتكلمون ويصلون

ويقرأون وطربوا لسماعهم الأنباء التى حملتها إليهم، أما خوجة نياز فقد بدا الاهتمام على وجهه، وتأرجحت عيناه فى قلق، ورفع يديه إلى السماء وغمغم. .

- «اللهم غفرانك. . اللهم نصرك. . ».

وعاد يحدث الرجال عن تجاربه فى الحياة، كان يقول لنا إن الأمور الخطرة والأحداث الكبرى لا يمكن أن تحل بالتجزئة. . وهى فى الوقت نفسه لا تقبل الحل الوسط، والمنتصر لا يعطى المهزوم شيئًا أصيلاً أبدًا، إنه يعطيه الفتات والنفايات. . وشعبنا المسكين- شعب تركستان- محصور تحيطنا الحراب المسومة. . والمدافع والنيران. . والتحريض قادم من بعيد. . أنا أعرف دعاة الصليبية فى العالم، إنهم ينتهزون فرصة ضعفنا وهواننا ويحتشدون من حولنا. . ويثيرون نعرات شعوبية وإقليمية. . إنهم يريدون أى شىء على ألا نكون مسلمين. . هل تفهمون؟؟».

ولهذا فهم يجردون الجيوش والشرطة لإرغام فتياتنا على الزواج مهم. . ليست لديهم أزمة فى النساء. . لكنهم يرون القضاء على قيم ومبادئ. . هى وحدها التى حفظت استقلالنا وحريتنا عبر السنين الطويلة. .

كان الأمير السجين يعلم أن نهايته الموت، ونحن ننطق كلمة الموت هكذا ببساطة، أو نكتبها على الورق دون أن تثير فى نفوسنا

مضاعفاتها المرعبة المدمرة، أميرنا يقف على أعتاب الموت.. ليس هذا أمرًا هينًا.. وعندما يموت الإنسان يترك أحلامنا جميلة لم تكتمل.. يودع ربيعًا نابضًا بالحب لم يذبل بعد، وعندما يموت الإنسان ينظر إلى عينى طفله الصغير اللاهى ويقرأ فى العينين الصغيرتين أحلى قصيدة شعر، وينظر إلى النسوة والرجال الذين أحبهم.. ثم يتصور أنه بعد ذلك سوف يأوى إلى حفرة نائية مظلمة لا حس فيها ولا خبر.. ويطول به المقام فيها ربما لآلاف السنين.. ينام عاجزًا فى قبره.. والأحداث التى تهز العالم تضطرم من حوله دون أن يستطيع المشاركة فى شىء.. ويضحك الأطفال، وتبتسم الغيد الحسان، وتخضر الأرض، وتورق الحدائق، ويجوس الطغاة خلال الديار ويعبثون وينهبون ويرغمون المسلمات على الزواج.. وهو.. هو الأمير.. تحت التراب يرقد عاجزًا كقطعة من خشب متعفن.. أليس الموت رهيبًا..

وكتب أمير «قومول» السجين رسالة عاجلة إلى القائد الصينى، يعتذر له فيها على ما بدر منه من جفاء، ويعده بالنظر فى الأمر من جديد بطريقة فيها النجاة والفائدة، وطلب منه أن يسمح بلقائه..

ابتسم القائد الصينى، وأغمض عينيه برهة، كان يفكر فى الأميرة الجميلة وليلة الزفاف الكبرى، والمتع التى سوف يجنيها.. وخيل للقائد آنذاك أن كل شىء تحت تصرفه، وليس فى

الأمكان أن يستعصى عليه أحد، وهو شعور ينتاب المنتصر القوى دائمًا، ولو للحظات قصار، وفى هذه اللحظات ينظر إلى البشرية بعين الرثاء والعطف . . عطف القادر المتعالى المتغطرس . . وقال القائد :

- «أحضروا الأمير إلى مجلسى لنرى ماذا يريد».

سرْ أيها الأمير المسكين ولا تحزن، فلن يضيرك أن تكون فى يدك الأغلال، أو يحيط بك كوكبة من الصينيين الأجلاف الذين يتطاولون فى البنيان ويشمخون بأنوفهم الصفراء . . سرْ يا أمير «قومول» وأغمض عينيك حتى لا ترى مظاهر الاستخفاف والعنجهية، وامض فى طريقك حذرًا، وسد أذنيك عن الكلمات السخيفة، وغض بصرك عن الملامح الشامتة والنظرات التى تنبض بالحماقة والتشفى .

«عم صباحًا أيها القائد» .

- «مرحبًا بك يا أمير» .

وجلس الأمير خافض الرأس، وظل الأمر هكذا حتى أمر القائد أغلب رجاله بالانصراف، وما أن خلا الجو حتى مال الأمير التركستانى على القائد هامسًا :

- «إن أمرًا كهذا لا يحله العنف» .

قال القائد :

- «لم أجد وسيلة أخرى بعد أن أمهلتهم . . وأنت نفسك رفضت زواجى من الأميرة . . » .

- «نستطيع أيها القائد «الصديق» أن نعالج الأمر برفق . . » .

- «كيف؟؟؟» .

- «عندى فكرة . . » .

- «ما هى؟» .

وطرح الأمير أمام القائد فكرته ، هى تتركز فى أن يطلق سراح الأمير ، حتى يتمكن من الاجتماع بعلماء الشريعة ، ويناقش الأمر معهم ، لعله يستطيع الحصول منهم على «فتوى» دينية تبيح مثل هذا الزواج ، وتلتمس له الأدلة فى بطون الكتب القديمة ، فإذا ما وفق الأمير لإخراج مثل هذه الفتوى المهورة بتوقيع الفقهاء ، حل الإشكال ، وساد الهدوء ، ونعم الجميع بالأفراح والسعادة . .

ابتسم القائد الصينى وعبث بشاربه وتمتم :

- «أرى إننا نقترب أكثر فأكثر . . والشقة تضيق بيننا . . وصدقنى أننى قادر على أن أبقيك على كرسى الإمارة . . وأن لى كلمة مسموعة لدى القيادة . . » .

وأخذ القائد يقهقة بصورة أدهشت الأمير الذى قال :

- «لا أشك إنك سعيد أيها القائد» . .

- «كل السعادة يا أمير . . كلما تصورت أن الأميرة بين ذراعى . . وأننى سأنجب منها أطفالاً غاية فى الروعة والجمال . . أكاد أجن من الفرح . . سوف نصبح أسرة واحدة سعيدة . . ولن يكون هناك غالب ولا مغلوب . . » .

هذه الفلسفة الحمقاء التى تتوارى تحت ستار الإنسانية والأخوة ، لشد ما أمقتها . . ابنتى بين ذراعيه يا للمهزلة ! ! إننى أشعر بالتقزز والغثيان ، فما بال المسكينة إذا وقعت بين برائن هذا الحيوان ، وانكسب فى سمعها الرقيق غزلة السمج . . ابنتى تجالس هذا الوحش؟؟ كيف؟؟ أعرف أن الإنسان ليس شحمًا ولا دمًا ولا لونًا فحسب . . إنه الفكرة والمعتقد . . الأشياء العظيمة التى يؤمن بها الإنسان هى التى تجعلنى أنظر إليه وأقيمه ، فأحبه أو أكرهه ، والفكر يعطى كومة اللحم والعظم معنى وتقبلاً وشفافية . . الفكر يغطى الهيكل . . يكسبه ثيابًا . . يجعله يبتسم ابتسامته المقبولة ، ويتحدث حديثه المحبوب ، يجعله إنسانًا . .

وغمغم القائد :

- «أتعتقد يا أمير أن هناك فرقًا بين الصينى والتركستانى ؟ ؟» .

- «بكل تأكيد» .

التفت القائد إلى الأمير فى دهشة وقال :

- «ماذا؟» .

- «الصينى انتصر» .

قهقة القائد ثم قال :

- «هذا أمر معروف» نحن ننتصر دائمًا . . إنه أمر يمتد فى سحيق تاريخنا . .

فرد الأمير قائلاً :

- «منذ حرب الأفيون وقبلها» .

شحب وجه القائد ، ثم استدرك :

- «لم يستطع التفوق الاستعمارى أن يمحو شخصيتنا» .

وسادت فترة صمت قال القائد الصينى بعدها :

- «يقول العلماء إننا شعب ذو صفات غالبة . » .

- «كيف؟؟» .

واستدار القائد صوب الأمير ، وأخذ يشرح له باهتمام كيف أن علماء الوراثة قد أثبتوا أن الصينى إذا تزوج أوربية مثلاً ، فإن الأبناء

يحملون الصفات الصينية، وذلك بسبب قوة «الجينات» التى توجد فى خلايانا.

رد الأمير فى دهشة:

- «وما هى الجينات؟؟».

- «لا أعرف أيها الأمير.. هكذا يقولون..».

- «يا إلهى.. لماذا كنتم تبيعون بناتكم وأطفالكم..».

- «هذا كان.. أيام الشقاء والفقر.. لا تذكرنى بهذه الأيام الحزينة..».

واكفهر وجه القائد الصينى فجأة، وبدت نذر الثورة على وجهه الأصفر، وهب واقفًا، ثم خطا خطوات داخل قبو صغير، وعاد فى يده زجاجة من الخمر الردىء، وأخذ يجرع منها فى عصبية، وتحامل على نفسه، وأخذ يقول والغيظ يخالط نبراته:

- «بحثت سنوات عنها..».

- «عمن تتكلم أيها القائد..».

- «أختى..».

- «هل فقدت فى حرب..».

- «اختطفها البعض أيام حرب الأفيون.. لا تصدق ما يزعمون

بعض الحمقى يقولون إن أمى باعتها حتى تطعمنا . . هذا كذب . . كذب . . كذب . . ».

وهب الأمير واقفًا وقال :

- «لا تجزع أيها القائد . . ولسوف أعود إليك بالأبناء التى تسرك بعد أن التقى بعلماء الشريعة . . أتسمح لى بالانصراف؟؟

عادت الإشراقة إلى وجه القائد الصينى ، وقذف بالكاس يمينًا . .

- «تستطيع أن تنطلق حرًا يا أمير قومول . . ولسوف نشرب كثيرًا ليلة الزفاف . . وسنرقص ونغنى ونضاجع النساء . . ولنرى أن الأجناس لها الصفات الغالبة . . فى الشرق والغرب حاربت . . وكنت الغالب دائمًا . . الموت أمر هين . . لم أفكر فيه ولهذا لا أخافه . . تعرضت له ألف مرة ومرة . . وها أنا أحارب وأنتصر . . وأحكم قومول . . سعادتى كلها فى أن أنتصر . . لا أنظر لشىء وراء ذلك يا أمير . . أنتم تفكرون كثيرًا فى الجنة والنار».

- «لأنها حقيقة أيها القائد».

- كيف؟

- «أنت تمسك الآن بالكأس المملوءة».

- «نعم».

- «فأين النشوة التى تحدثها الكأس».

-«النشوة؟».

- «نعم. . أين النشوة أيها القائد. .».

- «هذا ليست مادة. . لم أقرأ عنها شيئًا فى كتبى المفضلة. . لم يتحدثوا عن النشوة لأنها ليست مادة. . .».

- «لكنك تشعر بها. .».

- «نعم. . ولولاها لما شربت الخمر. .».

- «هى موجودة».

- «بالتأكيد يا أمير. .».

- «أريد أن ألمسها. .».

غمغم الأمير:

- «والنشوة العظمى أيها القائد فى جنة الله. . وأنا استشعرها بلا كأس. .».



الفصل [٣]

ولقد عاد أميرنا بوجه غير الوجه الذى ذهب، لم أعد أرى فى وجهه عينى ملك، إنه يلبس أفخر الثياب، ويحوطه الحرس وجوقة الشرف من كل جانب، وأبواب القصر مفتوحة على مصارعها، وأردية الحشم والخدم المزركشة تخلب اللب، لكن مولاى يا إلهى كسير النفس. . مال نحوى هامسًا:

- «يا مصطفى. . ما معنى أن تكون أميرًا؟؟».

لم أفهم لسؤاله معنى ارتبكت، ولم يستطع لسانى أن يتحرك، هتف بصوت متوتر كالفحيح:

- «قلها يا أحمق. .».

تلعثمت وغمغمت:

- «أن تطاع. . أن تكون حولك هذه الأبهة كلها. .».

قهقه فى مرارة، ثم قال:

- «الأمير هو الحر الذى يرضى عن نفسه . . ».

ولما لم أعلق، استطرد آسفًا :

- «أين هى الحرية إذن؟؟ ثم كيف أرضى عن نفسى وأنا أرى العدو يعيث فى الأرض الفساد، ويحاول أن يمرغ شرفنا فى الرغام . . أى مصطفى . . ديننا هو شرفنا . . ».

ثم أشار بيده إلى التلال البعيدة التى لا أكاد أدركها لبعد الشقة بينى وبينها وقال :

- «هناك على هذه التلال يعيش فئة من الرعاة الأبطال، لم يستطع العدوان أن يقهرهم، ولم يتزوج نساءهم، بالقوة . . هؤلاء يشربون ألبان الماعز ويغزلون الصوف، ويعبدون الله الواحد الأحد . . لا يخافون أحدًا إلا الله . . أتدرى؟؟ هؤلاء هم الملوك غير المتوجين . . ما أشد حنينى إليهم يا مصطفى . . ».

قلت فى ثقة :

- «هؤلاء الذين تتحدث عنهم هم رعاياك يا مولاى؟؟».

- «ليس للعبيد رعايا يا مصطفى . . العبيد لا يعرفون غير القيود والذل . . ».

ودخل مولاى القصر حزينًا مكتئبًا، واحتشد حوله أهل بيته، ثم

توافد عليه العلماء وعِلّية القوم من كل جانب ، وفى المساء عقدت الجلسة التاريخية التى لاتنسى ، وبينهم خوجة نياز حاجى ، وكان الرجال العظماء يجلسون منكسى الرؤوس يعلوهم الكدر والعناء ، وقال مولاى الأمير :

- «أيها الرجال يجب أن نعود من حيث أتينا» .

- «كيف؟؟» .

-هذا ما تساءل به خوجة نياز .

رد الأمير :

- «أن نخلع رداء الأمراء والعظمة وأن نعود رعاة إبل وشاه . . ثم نبدأ من جديد المعركة . . فإن متنا كان هذا غاية الشرف . . وإن انتصرنا وبقينا . . استطعنا أن نقول للناس نحن أمراء . . المنهزم ليس أميرًا . . ولايصح أن يحكم . . إن حكم المنهزمين يجعلنى أسخر من نفسى . . أنا أمير ويأمرنى قائد صيني . . أليس هذا عين الخيبة والفشل» .

أما نياز حاجة ، فقد حاول أن يبدد الغيوم الذى ذرت الكآبة فى أفق القصر ، وهتف بأعلى صوته :

- «أيها الأمير . . أيها السادة . . يجب أن نوافق الصينى على فكرته» .

هاج الحاضرون وماجوا، وبدا عليهم الاشمئزاز والمعارضة الشديدة، غير أن الأمير ابتسم وقال فى هدوء:

- «وأنا أوافق خوجة نياز.. وسيكون العرس فى قصرى وسيتزوج القائد الصينى الغالية.. سوف نفدى بذلك شعب قومول، وننجيه من مذبحة لا تبقى ولا تذر..».

وصرخ أحد العلماء قائلاً:

- «الله».

ورد الأمير:

- «الله معنا.. ولن يخذلنا..».

وعاد العالم يقول:

- «كيف يكون معنا ونحن ندوس شريعته؟..».

وسادت همهمات وغمغمات، وأخذ الجالسون يتناقشون بصوت خفيض، وينكبون على الأمير، ثم يذهبون إلى خوجة نياز، ولا تكاد ترى إلا شفاههم تتحرك، وأيديهم تشير، وعيونهم تتأرجح فى حيرة وحذر، وحملت فى اليوم التالى رسالة إلى القائد الصينى مكتوبًا فيها أن الأمير قد وافق على زواج ابنته من القائد، وأن العرس سيقام فى قصر «قومول» الشهير الذى يسكنه الأمير، وأن الدعوة موجهة لكل العظام من الضباط وأكابر الصين، وكاد

القائد الصينى يجن من شدة الفرح، لقد سقط الاعتراض الدينى، وسادت «قومول» موجة من الغضب والسخط ضد الأمير والعلماء المسلمين هذه المرة، وأخذت جموع الثائرين تتحرك فى مجموعات صغيرة تعلن رفضها لفتوى العلماء، واستسلام الأمير، وحاول بعض الثائرين أن يقذف قصر الأمير بالأحجار، ولقد هَمَّ جيش الاحتلال باستخدام العنف للقضاء على هذه المظاهرة مخافة أن يتسع التمرد، وتندلع الثورة، لكن شروط أميرنا كانت تؤكد للقائد الصينى ألا يتعرض لأحد من المتمردين بسوء حتى ينتهى الأمر بسلام، ويستسلم الناس للأمر الواقع، ثم أنفض المجتمعون فى القصر على موعد، ولف «قومول» ليل أسود ثقيل، شديد الوطأة على نفوس الرجال الشرفاء، وكاد يحدث فى القصر فى تلك الليلة حادث له العجب، إذ أتت الأميرة لأبيها قائلة:

- «لن أتزوجه يا أبى».

- «كيف أطيعك.. وأعصى الله.. الله أعز منى ومنك..».

- «والله يريد ذلك يا ابنتى..».

- «لا يريد الله إلا الخير..».

- «لعل فيها الخير.. كل الخير..».

وقالت الأميرة وهى تنتحب:

- «الآن أبرأ منك . . من الملك . . فدعنى أرحل . . ».

ربت على شعرها الذهبى الناعم وقال:

- «كيف ترحلين وسط الذئاب؟».

تسللت إلى الداخل، وسمع لبكائها صوت يمزق نياط القلوب، كانت قد أغلقت على نفسها حجرة صغيرة، وأبت أن تستجيب لإلحاح أمها كى تفتح لها الباب، ونظرت أمها من ثقب بالباب، فرأت فتاتها تمسك بخنجر، وترفع وجهها إلى السماء وكأنها تصلى وتدعو الله أن يغفر لها، فلم تضيع الأم وقتًا، بل هرولت إلى الأمير وأخبرته بكل شىء وبحركة بارعة سريعة فُتِحَ باب الغرفة وأمسك بالأميرة قبل أن تغيب الخنجر فى صدرها . .

وجاء موكب القائد الصينى تصحبه الموسيقى العسكرية واللاعبون بالنار وبعض الرقصات الشعبية الصينية، وفقراء قومول يبتعدون ويبتعدون عن قلب المدينة . . يسجدون لله تحت الأشجار خفية، أو يرتلون الأدعيات على شواطئ الغدران، وبعض المتصوفة يغرقون لحاهم بالدموع فى الأضرحة القديمة، وفى المساجد العتيقة التى لم تزل شموعها ومصابيحها مطفاة أدهشنى أن أرى قصر الأمير من رجال الجبال يدعوهم دائمًا فى المناسبات المهمة، لكى يكلموا الموكب الملوكى ويزيدوا من رونقه وبهائه- كما يبدو- فقد كان أميرنا خائفًا من أن يندس أحد المعارضين، ويرتكب

حماقة تقلب الأفراح إلى كارثة محققة، ولهذا فقد وزع رجال الجبل فى كل مكان داخل القصر وخارجه، وأعطاهم الأوامر المشددة بألا يسمحوا لأحد بالدخول أو الخروج وأن يراعى الدقة فى الحركة والنظام..

وشرب القائد الصينى نحب الصداقة العريقة بين الشعب الصينى والشعب التركستانى وظل يشرب حتى كاد أن يترنح ثملاً وأخذ يقول:

- «عندما نتحرر من التقاليد القديمة وسطوتها.. نشعر أننا أصبحنا رجالاً عصريين.. الرجل العصرى إله بنفسه.. لا تحكمه سماء، ولا تخيفه قوة مجهولة، كانت أمى تقول لى لا تفعل هذا الشيء؛ لأن ذلك لا يرضى الرب، فكنت أصرخ فى وجهها قائلاً: أين هذا الرب.. فكانت المسكينة تدمع.. وتشير بيدها إلى السماء.. إلى أحد الجهات الأربع أو إلى تمثال قمىء.. فكنت أقهقه وأفعل ما يحلو لى، وهى تنظر إلىّ فى دهشة وكأنى قد ارتكبت جرمًا كبيرًا.. ها.. ها.. ها.. ماتت بعد أن سُرقَت أختى.. وكانت تضم تمثالاً صغيرًا إلى صدرها.. هيه.. وبعد أن ماتت سطوت على كل ما عندنا من تماثيل وبعتها بكمية قليلة من القمح.. ها.. ها أيها الأصدقاء التركستانيون.. فلنشرب نخب القضاء على كل لمبادئ القديمة العفنة.. فالمجد لنا نحن.. للإنسان..».

تململ خوجة نياز، واحتقن وجه العلماء، وأصيب أحد الرجال بالصرع فحملناه خارجًا، وسمعنا صوتًا فى جنبات القصر يدوى «الله أكبر . . الله أكبر . . ». قالها أربع مرات، وفى وقت قصير لمعت السيوف، وانطلقت البنادق القديمة، واندلعت المعركة التى أشعلها رجال الجبل، الذين أخذوا يتوافدون من كل ناحية، ومن الدور الأعلى، ومن باطن الأرض، ومن فوق أسوار القصر، وفى وقت قصير كان القائد الصينى ومن حوله من الضباط العظام والرجال الكبار جثثًا متناثرة فى أروقة القصر، لقد تم القضاء على كل الرجال الصينيين وساد الذعر جنبات «قومول» . . وخرج الأهالى عن بكرة أبيهم يفتكون بالصينيين ويستردون بناتهم التعسات ويحررون الأسرى والمأسورين فى السجون ودور الشرطة . . ومن بقى من الصينيين كان يفر هاربًا، أو يتوسل ضارعًا، أو يسجد على الأرض طالبًا العفو معلنًا إسلامه وإيمانه بالله . .

ووقف الأمير وسط الساحة ينظر إلى المشهد الدموى وإلى جواره ابنته وقال وهو يضمها إلى جسده فى حب رائع :

- «أستطيع أن أقول الآن أننى أمير قومول . . ».

قالت الأميرة فى مرارة :

- «لكنهم لن يتركوننا . . » .

ضحك الأمير :

- «سأظل أميرًا طول حياتى . . أعنى لن ألقى السلاح ولن أقبل الهزيمة مرة أخرى . . فإذا فشلنا فسأمضى فى طريق الجهاد حتى الموت . . هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكننى أن أعيش بها أميرًا وأموت بها أميرًا . . وألقى الله مسلمًا . . . » .

●●●

الفصل [٤]

امتد النور إلى جميع الأنحاء، وخفقت أعلام النصر فى أنحاء قومول، وتناقلت المقاطعات المجاورة أنباء «الانتقام المشروع» الذى حمل لواءه أميرنا ومعه قائدنا الفعلى «خوجة نياز حاجى»، وعلى الرغم من أننى شخصيًا قد شاركت بعنف فى موجة الثأر لدينى ووطنى إلا أننى كنت أشعر أن المعركة الساخنة لم تبدأ بعد، فالصينيون لن يتركوا الأمر يمر دون أن يصبغوا أرضنا الخضراء بدماء العقاب الوحشى. . ووجدتنى أفكر فى الموت والحياة. . إذا كان لكل شىء نهاية، فلِمَ نخاف من لقاء الله. وإذا كان مصير الشهداء هو الجنة، فلماذا نحجم عن اقتحام حقول الموت فى شجاعة، كان علماؤنا فى المساجد يحدثوننا إننا خير أمة أخرجت للناس، وكنت أنظر إلى تحكم الصينيين فينا، فأشعر أننا قد أصبحنا أمة مهانة، يؤرقها الذل، ويمثل خطاها القيد الذميم، ويمحق كرامتها وإنسانيتها قوم لا يؤمنون بالله.

- «أها أنا قادمة إليك».

- «ما الذى أتى بك يا نجمة الليل؟».

- «أنت روحى وحياتى رأيتك تضرب بسيفك يمينًا ويسارًا، وتجندل الأبطال، فذبت شوقًا إليك».

- «يا نجمة الليل ابحثى لك عن رجل آخر..».

- «أنت الذى ابحثى عنه يا مصطفى..».

وتطلعت إلى الليل الضارب، وما يخفق به من أسرار وذكريات، وغمغمت:

- «الليل يا نجمة يحمل أسرارًا مهولة..».

- «هذا ليل المحبين الجميل..».

- «لا أرى فيه غير المعارك المرتقبة الصراع الدامى».

اقتربت منى، وأمسكت بيدى الباردة، وهمست:

- «وراؤنا بستان القصر تفوح فى جنباته الروائح الزكية..».

- «كنت أفكر بالأمس فى الزواج؛ لأنى لم أكن أجد عملاً ذا قيمة أعمله..».

- «واليوم يا مصطفى حضرت..».

- «أفراح الروح معلقة بالسماء.. بالجهاد الأعظم».

- «هذا لا يمنع أن تضمنى إليك . . تستطيع أن تحارب وأن تنجب الأطفال . . » .

- «يا نجمة الليل ليس الليلة موعدنا . . » .

- «متى إذن؟؟» .

- «شىء يعلمه الله . . » .

واجهتنى بصراحة مؤلمة، وقالت فى غيظ :

- «من أنتم؟؟ أتعتقدون أنكم قادرون على هزيمة ملايين الصينيين؟؟ دعا نتزوج، ونرحل عن هذه البلاد . . » .

ضحكت فى مرارة، وأنا أعتصر كفها الصغير فى غيظ :

- «أين البلاد التى يحلو لنا فيها المقام . . الوباء قادم من الشرق، والموت يزحف من الغرب، ونحن حيرى . . لا حياة لنا ولا موت إلا هذا . . » .

ونزعت يدها قائلة :

- «أنت تعيش بقلب ميت قبل أن يحين الموت» .

- «أنا أحيا متفرغًا للمعركة . . » .

- «والحرب يا مصطفى لا توقف أى شىء . . الأزهار تنمو وتترعرع والحبالى تضعن أطفالهن، والرعاة يغنون على سفوح

الجبال، والناس تحصد وتزرع . . وأنت كالراهب المتبتل الذى يريد أن يجعل من الحرب والتفكير فيها صومعة يخلو لها . . » .

كانت كلماتها قوية مؤثرة، تورق بروعة الصدق، وتفوح من حروفها رائحة الحياة الحارة الجياشة، وجدت العرق يتساقط على جبهتى، وشعرت بأن أعصابى المشدودة ترتخى رويدًا رويدًا، وأن عيناى تتطلعان إلى السفوح الخضراء يوشيها القمر الفضى، وتنفست من الهواء البارد الحلو بعمق، ثم تنهدت قائلاً :

- «أنا أحبك يا نجمة الليل» .

- «ومتى يكون؟؟» .

- «أقرب مما تتصورين . . » .

وسمعت حركة وخيولاً تركض، وعربات تفرقع، وأصواتًا مختلطة، ورأيت أشباحًا تتحرك هنا وهناك، كنت على علم بأن اجتماعًا كبيرًا سوف يعقد لدراسة ما تم من أحداث كبار، وما سوف يتبع ذلك من رد فعل قد يجر أهوالاً لا حصر لها .

«انصرفى يا نجمة الليل . . . » .

ومضت فى عتمة الظلمة تدرج كخيال لطيف له حفيف الملائكة، العيون الخضراء تضىء كجوهرتين، والوجه الأبيض الذى يفيض حيوية وجمالاً يتألق فى نور الابتسامة العذراء،

صورتها لم تزل عالقة بقلبى وروحى برغم انسحابها صوب الباب الجانبى للقصر . .

وعقد اجتماع كبير فى قصر أمير قومول، حضره علية القوم من عظماء ومفكرين وقادة عسكريين، كما اشترك فيه عدد كبير من المقاطعات الأخرى التابعة لتركستان الشرقية، وافتتح أمير قومول الحديث موضحًا أن المعركة التى احتدمت بالأمس لم يكن هناك مفر منها، ولم يكن شعب تركستان -لا قومول وحدها- يرضى أن تداس تعاليمه الإسلامية، وقد رفض القائد الصينى التنازل عن القوانين التى أصدرها، ولم يكن هناك من وسيلة سوى الصدام الذى جرى، وقد يرى البعض أن الحركة التى قمنا بها ضربًا من الحماقة إذ إننا لم نتحسب النتائج الخطيرة التى ستترتب عليها، لكن هل هناك بديل لها سوى الاستسلام؟؟

إن الاستسلام القديم جر علينا كثيراً من الكوارث، والمنهزم لا حدود لتنازلاته، ومن ثم كان لابد من الضرب بشدة بصرف النظر عما قد يحدث من نتائج . . ورد أحد الجالسين معلقًا بكلام يفهم منه أن ما وقع كان خطأ كبيراً، فليس لدى تركستان قوة تضارع قوة الصين، إن ثمانية ملايين من أبناء تركستان لا يمكن أن يصمدوا أمام شعب الصين الذى يربو تعداده على أربعمائة مليون، وإذا كان من الممكن أن ترسل وفداً إلى الحاكم الصينى الأعلى، وتجرى معه

مفاوضات سلام لعلهم يخفقون الوطأة، ويلغون القوانين الجائرة التى تتعارض مع ديننا وكرامتنا، وما لا نستطيع أن نأخذه بالحرب كان من الجائز أن نحصل عليه بالسياسية، أعنى بالمفاوضات. . ولقى هذا الكلام ترحيبًا لدى بعض السياسيين القدامى الذين حضروا الاجتماع، واقترحوا أن يرسل وفدًا إلى الحاكم العام الصينى لتركستان الشرقية، غير أن «خوجة نياز حاجى». أشار بيده وقال فى غضب:

- «أيها الرجال، إذا أرسلتم وفدًا، فلن يعود إليكم سوى أخبار ذبحه كما تذبح الشياه، ولن يغفر الصينيون لنا ما حدث لرجالهم فى قومول، والرأى عندى أنه لا وسيلة سوى الحرب. . إننا نضيع الوقت عبثًا إذا بقينا هكذا نبحث عن حل سلمى للأزمة، فلن ينسى الصينيون دماءهم إنهم يقسون ويقتلون وينتقمون دونما سبب، فما بالكم وقد قضينا على أحد قادتهم هنا، ووارينا ضباطهم وجنودهم التراب. .».

ثم هب خوجة نياز حاجى واقفًا، وصاح بأعلى صوته:

- «سمعتكم تتحدثون عن الأربعمائة مليون صينى، كما لو كنتم حضرتم هذا الاجتماع بصفتكم وفدًا عن الصين وليس جماعة من الفدائيين المسلمين، وإذا كنتم تقيسون الجيوش بعددها فوالله إن الإسلام ما كان لينتشر، وترفع راية الله فى الأرض لو أن المسلمين

الأوائل فكروا كما تفكرون، وكأنى بكم لم تقرأوا قول العلى الأعلى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ولكى نُكره خصومنا على احترام ديننا، فعلينا معشر المسلمين أن نتخذ القرآن إمامًا لنا، فإنه يكفل خير الدنيا والآخرة، والله ما تحكم الأعداء فينا، وملكوا رقابنا إلا لأننا تنكرنا لديننا، ونبذنا قرآننا وراءنا ظهريًا، وإنى أعاهد الله على أنى لن أضع سلاحى حتى ألقاه أو أنتقم لدينى وبلادى، فمن كان أبواه مسلمين فليتبعنى..».

وخرج خوجة نياز حاجة من قصر الأمير، قاصدًا إلى المخازن التى وضعت فيها أسلحة القتلى الصينيين، وسار الجميع وراءه.

كنت أمضى مع الحشد الثائر، وأرى مولد روح جديدة انبثقت وسط ظلمات اليأس المدلهمة، لم يعد أحد يفكر فى جحافل الصينيين، كل رجل يسابق الآخر ليعثر على قطعة سلاح وكمية من الذخيرة.. وسقطت تحت أقدام المحاربين كل اعتبارات التفوق العددى والتفوق فى الذخيرة لدى الصين، العقلاء ظنوا ذلك ضربًا من الجنون، والمتحمسون كانوا يتصورون أنه ليست هناك قوة على الأرض تستطيع أن توقف زحف الثوار، والمؤمنون بالله أيمانًا عميقًا يرون أن القتال قد فرض عليهم فرضًا، وأن المعركة يجب أن تستمر، ولعبرة بالسير إلى الأمام ومجالدة الكفرة والطغاة، أما النصر والهزيمة فأمرهما بيد الله، وبدا الموت شيئًا لا يؤبه له..

وانحدر الرعاة بأغانيهم الشعبية من الجبال، وأتى الفلاحون بثيابهم الرثة حاملين أسلحتهم الصدئة يهللون ويكبرون، ونظرت من برج فى أعلى القصر، فرأيت الطرق تموج بالبشر.. وتألقت تحت عينى المآذن والقباب الخالدة التى بناها الأجداد العظماء.. وبدت بلادنا الحبيبة بصباحها الذهبى، وجناتها الخضراء، ومبانيها الصامدة صورة من صور الخلود والقوة التى يحميها الله.. وهرولت نازلاً.. وعند نهاية الدرج رأيتها:

- «ماذا تريدين يا نجمة الليل؟».

قالت وقد تبللت الأهداب الجميلة بالدموع:

- «هل أنت راحل؟».

كانت نبراتها تشى بالأحزان الثقيلة:

- «أوَّ تظنين أن مصطفى يبقى ليقدم الزاد للخيل، ويرعى الأغنام».

- «كلكم ذاهبون..».

- «نعم.. فلا معنى للحياة فى ظل الهوان..».

أطالت النظر إلىّ، ثم قالت:

- «قلبى يحدثنى بأنك لن تعود..».

- «لو كنت تحبيننى حقًا لفاض قلبك بالأمر . . » .

- «الحب الكبير يخالجه الخوف . . » .

هززت رأسى قائلاً :

- «نعم . . لا أكذب عليك» .

- «الحب الحقيقى يا فتاتى لا يموت . . ولا يعتريه خوف . . إذا كان حبًا ساميًا فسيبقى سواء طوانا الموت أو كتبت لنا الحياة . . » .

رفعت يدها وخبطت على ذراعى مداعبة :

- «لم أذق بعد شيئًا من الحب كباقى النساء . . » .

وشردت ببصرى إلى بعيد ، كنت أغمغم الليالى التى قضيتها أفكر فيك كانت أيامًا جميلة ، كان للحرمان والصدود معنى صوفيًا يرقص له قلبى . . آه لو تعلمين . . قلبى الآن يخفق فى فرح . . أعرف أن ورائى قلبًا كبيرًا يمتلئ بالحب لى ، وسيضىء خيالك فى ظلمات المعارك المدلهمة . . سأدفعع عن شرفك وشرفى . . الشرف جزء من العقيدة التى أنعم الله بها علينا وعندما نعود سنتزوج . . يا نجمة الليل عودى إلى أميرتك . . فهى الآن وحدها فقد خرج الرجال . . وخروج الرجال فى هذا اليوم المشهور ذكرى رائعة يجب أن تغنوا وترقصوا لها . . وحرب المبادئ يا نجمة الليل تصنع الرجال . . . فيصبحون رجالاً حقيقيين . .

●●●

الفصل [٥]

توسلت إليه أن يحملها معه، تضرعت بدموعها أن يتركها تصحب الرجال حيث الموت والعنف والنار ولكن أمير قومول قال لابنته:

- «تعلمين يا أميرتى الصغيرة، أن الرجال قادرون على مجابهة العدو، وراغبون فى الموت، فلتركن النساء إلى الخباء..».

وأتى الرجال من كل فج، ومضوا فى كل صوب، وضل الغزاة طريقهم وسط الزحف الكبير الذى شمل تركستان الشرقية من أقصاها إلى أقصاها، وتناثر الجنود ينشدون السلامة هنا وهناك، وكان الروس يرقبون الأحداث عن كثب، فأوعز حاكمهم إلى أتباعه كى يمدوا يد المساعدة إلى ثوار تركستان الشرقية، وأرسل وفدًا لمقابلة خوجة نياز عارضًا عليه المساعدة الحربية -وأخذ «نياز» يتدارس الأمر مع رفاقه، وفى آخر الأمر قال نياز لقادة المحاربين من رجاله:

- «أنا أعرف جيداً ما تريد روسيا؟؟ إنهم لا يريدون لنا الاستقلال، من قديم وهم يريدون أن يثبتوا أقدامهم فى ديارنا طمعًا فى خيراتنا..».

ورد أحد الرجال قائلاً:

- «ولماذا لا نتحالف مع الروس حتى نقضى على الصينيين؟؟».

- «إن لم نكن قادرين على تحرير أراضينا بأنفسنا فلا نستحق الاستقلال..».

- «عدونا شرس، ولو تحالفنا مع الشيطان نفسه لرد العدوان لما لامنا أحد..».

- «تمهل أيها الصديق.. روسيا هى الأخرى عدو، وقد فكرت فى مساعدتنا؛ لأنها رأتنا نحقق النصر فعلاً.. فهى تنشد مآربها بأرخص وأقرب طريق.. والكفر أيها الرجال ملة واحدة.. الحلف الأعظم هو الحلف الذى يضم شعبنا فى شرق البلاد وغربها، وشمالها وجنوبها.. لن يكون هذا الحلف إلا فى ظل الله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].. هكذا تقول كلمات الله.. فى اللقاء الأخير مع الوفد قال «نياز»:

- «نحن نشكر لكم نيتكم الحسنة حيالنا.. ولكننا سنحارب العدو وحدنا..».

قال رئيس الوفد:

- «لن تصمدوا طويلاً.. ولدينا معلومات وثيقة أن عاصمة الصينيين فى أقصى الشرق سوف تحرك ألوية ضخمة للقضاء على ثورتكم..».

قال نياز فى حزم:

- «نحن نرحب بصداقتكم، ولكن نعتذر عن قبول معاونتكم المشروطة، فقد قرر رجالى عدم السماح لجنودكم أو خبرائكم أو تجارتكم النزول فى بلادى.. بذا ترى أن الأمر لا أملكه.. لكنه شعب ثائر قد قرر خطته بنفسه..».

ومضت الثورة فى طريقها، وانتشر رجال خوجة نياز فى كل مكان، وتهاوت القلاع الصينية تحت ضربات الرجال الجبابرة، وتراخت قبضة حاكم الصين على تركستان الشرقية، ووقع فى حيرة قاتلة، ووجده الروس فى مأزق حرج، فأخذ يطلب المعونة من الروس، فوافق الروس بشرط أن تبرم بينه وبينهم معاهدة يكون من شروطها أن يكون للروس الحق فى إنشاء وكالات تجارية فى تركستان، ولكل من يحمل الجنسية الروسية الحق فى التجول فى أنحاء البلاد، كما أنه ليس للسلطات المحلية الحق فى التفتيش على الواردات الروسية.

وازدادت المعركة عنفًا، كنا نمضى فى شعاب الجبال، وفى خضم الأنهار والمراعى فنرى الأسلحة وبعض رجال الروس يتدفقون لمساعدة الحاكم الصينى، وبدت المدن التى تحت سيطرة الصينيين، وهى تغص بالرجال الروس، الذين أخذوا يبثون الدعايات المغرضة، ويرشون كبار رجال الحكم، ويحرصون على القضاء على «خوجة نياز» الذين تمنوا أن يتحالفوا معه بالأمس.

والأدهى من ذلك أن الروس أخذوا يحرضون الطبقات بعضها على بعض، ويوقعون بينهم الفتنة والاشتباك واستطاع السلاح أن يوقى شوكة الصينيين، كما استطاع التخريب الفكرى أن يوهن القوى، ويمزق أواصر الوحدة الشعبية الكبيرة، وخضنا آنذاك معارك دامية، راح ضحيتها آلاف من الرجال، وجدنا أنفسنا بعد شهور مضيئة فى حاجة ماسة إلى السلاح والمال والطعام، وكان لابد أن تضمد الجراح، ونحظى بقسط من الراحة بعد الضغط الروسى الصينى الرهيب، فانسحبنا إلى الجبال.

واستطاع الحاكم الصينى أن يبسط سلطانه من جديد بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من النصر التام.. وفى كهوف الجبال، وممراتها وشعابها الكثيرة، كان خوجة نياز يتحرك بيننا ويقول:

- «الحرب أيها الرجال، سجال.. يوم لك ويوم عليك.. وقد عاهدنا الله ألا نستسلم حتى ننتصر أو نستشهد.. وكان يتطلع بعينيه

القويتين الفناذتين إلى السحب التى تتوج هامات الجبال، ويجوب بنظراته عبر المراعى الشاسعة، ويحلم بيوم يستطيع فيه رجالنا أن يمسحوا كل شر وخطيئة دنست أرضنا الطيبة. . وكان يضحك ويقول:

- «هأنتم ترون الروس ، الذين أتوا بالأمس لنجدتنا، يمدون يد العون لعدونا. . ألا تعتقدون أنهم اليوم سبب نكبتنا. . ؟؟».

ويعود خوجة نياز ويضحك ويروى بعض ذكرياته:

- «لا تحزنوا أيها الرجال. . من قديم والكنيسة تسعى للقضاء عليكم. . كانت تحرض روسيا على غزو ديارنا الإسلامية. . لأن الكنيسة لم تكن تنسى أن محاربينا الأشداء ساعدوا تركيا، وعاونوا العالم الإسلامى فى الحروب الصليبية. . وبلادنا أيها الأبطال لها ماض وتاريخ وحضارة عظيمة، وهى أرضنا تكمن الثروات الضخمة. . .».

إن هناك ألف سبب وسبب تجعلهم يطمعون فى أرضنا. . وأهمها هو أننا مسلمون. .

وبقينا فى الجبل شهوراً قاسية، لم تكن تكف فيها عن التدريب ومراقبة الأحداث، وتنظيم حرب العصابات. ونصب الكمائن، وبعد أن أعددنا العدة للهجوم الكبير، استدعانا خوجة نياز،

وطلب منا نتخفى، وننطلق فى أنحاء البلاد نجمع الأخبار، وندرس أحوال العدو، ونقاط الضعف فى تنظيماته.. وفى وسط الرجال قلدنى نوط الشرف وقال لى:

- «يا مصطفى مراد حضرت.. أنت كنت دائمًا مثال الجندى العظيم.. وأنا إذ أقلدك هذا الوسام، إنما أعبر فقط عن بعض تقديرى الذى ملأ قلبى.. وأرجو أن تسرعوا بالعودة.. فلم يعد أمامنا وقت طويل..».

وانطلقنا فى شتى الأنحاء متخفين، قومول الحزينة متشحة بالسواد، الرجال يشنقون لأقل الشكوك، أو «كاشغر» لا تستطيع أن تقابل أحدًا من رجالها الأبطال، فهم إما متخفون، أو هاربون فى الجبال، أو يتظاهرون بتأييد الحاكم الصينى، أو يسير فى رجال الخبراء الروس، أصبح من الصعب على الإنسان أن يميز الحقائق، وسط العنف الزائد، والاستبداد الذى لا يرحم وتغيرت معالم الأشياء فى «أورومجى»، يخيل إلىّ أننى لا أرى إلا وجوه الصينيين والروس، الزحف الشيطانى يدير الرؤوس، ويزيغ الأبصار ويملأ الآذان بالطنين.. وهكذا صرت أتجول من مكان لمكان، ومن مدينة لمدينة، وعدت إلى قومول أبحث عن «نجمة الليل» الأسود الحزين أين أنت يا حبيبتى الفاتنة؟؟ نفسى تطفح بالآلام والأحزان، والوسام الذى علقه القائد على صدرى ذات يوم أشعر كأنى لا

أستحقه، لا قيمة للأوسمة والعدو يروح ويجيء ويلهب ظهر أبناء الوطن بالسياط، أو يسوقهم إلى السجون، أو يعلقهم على أعواد المشانق.. أشعر بغصة فى حلقى.. بمرارة قاتلة.. ومع ذلك كنت أبحث عن «نجمة الليل» ذهبت إلى قصر الأمير فى قومول.. قصر الذكريات.. ،الحب الغاضب.. والتمرد العاطفى.. والوعود الخلابة.. وبدا لى القصر كمبنى ثرى عتيق من مخلفات الأقدمين، وبدت دوحاته الشامخة وكأنما هدتها السنون، وخطها الشيب.. كل شيء يشيخ ويمرض.. ويبعث على الدموع والأحزان.

- «هل رأيت نجمة الليل أيتها الأم الطيبة؟؟».

ورفعت إلىَّ امرأة عجوز رأسها ونظرت بعينيها الواهنين وخطت وهى تتوكأ على عصاها ثم عادت وتوقفت وهى تقول وقد حمت عينيها من ضوء الشمس بكفها المرتعشة:

- «هل أنت غريب عن هذه الديار؟؟».

- لا.. أنا ابن هذه الأرض..».

هطلت الدموع من العينين الكسيرتين وقالت:

- «حسبتك قادمًا من الجبال.. وأنا أبحث عن أولادى الأربعة.. ذهبوا ولم يعودوا.. ليت أحدكم يأخذنى إليهم.. لقد مللت الوحدة هنا مع بناتى الأرامل.. أزواجهم ذبحوا كما

تذبح الشياه . . ومعنا عدد كبير من الأطفال . . اللعنة على الصينيين والروس سواء بسواء . . » .

ومضيت فى طريقى أتجول فى أنحاء قومول المحتلة . . وفجأة وقع بصرى عليه . . إنه صديقى القديم :

- «منصور درغا . . » .

لقد هتفت باسمة دون وعى ، واقترب منى الرجل وقال :

- «مصطفى مراد حضرت . . أهو أنت؟» .

وتعانقنا عناقًا حارًا ، ثم جذبنى من يدى ، وذهب بى إلى مكان خفى أمين لا يرانا فيه أحد ، ثم جلسنا وحدنا .

- «ما هى أخبارك يا منصور؟؟» . .

تنهد «منصور درغا» فى أسى وقال :

- «الثوار يذبحون فى مقاطعة «أيلى» . . وفى مقاطعة «آقصو» و«تشوشك» . ومدينة «شهبار» تعانى من السجن والكبت والانتقام المريع . . الشيء نفسه فى «كوتشار» وفى «آلتاى» الاستبداد فى كل مكان . . إن الأعداء يدبرون ويخططون . . إن خبراءهم ليسوا للمعارك والتجارة والدعاية فحسب . . بل لديهم خبراء فى فن التعذيب والقتل والقضاء على الإسلام والمسلمين . . » .

ودمعت عينا منصور درغا وصرخ فى احتجاج :

- «هل هذا يرضى الله؟؟» .

قلت فى ألم : «بالطبع لا . .» .

رد منصور وقد تغير سحنته :

- «لماذا إذن يتركنا هكذا نتعذب ونلاقى الذل؟؟» .

- «الله عادل يا منصور» .

- «لكن الظلم أغرق الأمة فى طوفان من الأحزان . .» .

- «ومع ذلك فإن الله عادل يا منصور . .» .

- «العدل هو أن يستحق هؤلاء الكفرة . .» .

أمسكت بذراع منصور درغا وقلت :

- «ومن العدل أيضًا أن نكون مسلمين حقيقيين حتى ينصرنا . .» .

هز رأسه فى أسى وقال :

- «صدقت . . فينا الخونة الذين تعاونوا مع العدو . .» .

- «هم قلة . .» .

- «نعم . . وفينا الذين انسحبوا من الحياة ولم يشاركوا بشىء . .» .

- «السلبيون فى كل أمة . . » .

- «أجل . . وفينا من كفروا بالله وآمنوا بالقادمين من هناك . . . »

ثم التفت منصور إلى محتقن العينين وقال :

- «وفينا نساء جميلات . . لا يعرفن شيئًا اسمه الفضيلة . . » .

ضقت ذرعًا بكلمات منصور ، فهو فى ثورة يأس قاتلة ، ويعانى من أزمة نفسية مدمرة ؛ لأن الأمر ليس على الصورة التى يرويها ، فشعبنا شعب صابر مقاتل لم يستسلم ، والخونة فئة قليلة جدًا ، قد ضعفت نفوسهم إما خوفًا من العدو ، أو انهيارًا أمام ألوان العذاب أو انخداعًا ببعض المكاسب المادية ، أو أصابهم شىء من الخداع الفكرى فوقعوا فى شباك العدو وهؤلاء أو هؤلاء عددهم قليل جدًا ، أما النساء فإن فئة من الجاهلات الغافلات اللاتى لا يجدن ما يفتتن منه ، قد سقطن فى شباك الرذيلة من أجل لقمة العيش ، أو رضخوا للتهديد وفضلوا الحياة القذرة على الموت الشريف ، أنا لا أنظر إلى الأمر كما ينظر إليه «منصور درغا» ، فأنا أعرف منصور من قديم ، فهو مثالى حالم ينظم الشعر ، ويحفظ أحاديث البخارى ، إن منصور يحلم دائمًا بالتاريخ العاطر ، لم يحاول أن يوفق بين الماضى الرائع والحاضر التعس ، حتى يحفظ على نفسه شيئًا من التوازن النفسى .

- «لماذا لا تقبل الواقع كما هو، وتحاول أن تعالجه..».

هز منصور رأسه فى غضب وقال:

- «هناك حالات مرضية ميئوس منها..».

- «والحل يا منصور؟؟».

لوى شفتيه، وقال باشمئزاز:

- «وكيف نموت؟؟».

أدرك ما أرمى إليه، دارت عيناه فى حركة قلقة، وكأنه يكتشف آفاق نفسه، ويحاول أن ينشر أفكاره القديمة، ويمعن النظر فى آرائه:

- «نموت يا مصطفى كما يموت الأبطال..».

احتضنته فى سعادة وقلت:

- «هأنت ترانا متفقين..».

-«بكل تأكيد. وقد كنت عازمًا على اللحاق بكم فى الجبال..».

- «سنذهب غدًا. وقد كنت اقترب الكبير..».

وخرجنا نتجول فى أنحاء قومول وقد أرخى الليل سدوله، كان كل شىء واضحًا تمامًا فى الموقف، فالناس قد ضاقوا ذرعًا، ولا

يحتاج الأمر إلا أن ينحدر الرجال من الجبال، وينزل خوجة نياز حاجى ليشعل الثورة من جديد. . وقبل أن نفترق قال منصور درعا:

- «لم تسألنى عن نجمة الليل. .».

أمسكت فى ضراعة:

- «أين هى؟؟».

ضحك منصور فى مرارة وقال:

- «تزوجت. .».

- «كيف؟؟ إنك تمزح. .».

- «عندما هجر الأمير القصر، وتفرقت أسرته، وخرج الناس للحرب، أصابها انهيار عصبى. . كانت تبكى وتصرخ. . لكن بكاءها وصرخها لم يطمس جمالها. . هل فهمت؟؟».

- «لم أفهم شيئًا. .».

- «لقد أعجب بها ضابط صينى نزل قومول لأول مرة. .».

دعنا من هذا الأمر الآن. . لا يصح أن نكترث له. .

وأنا -إذ تنطفئ الفرحة فى قلبى- أشعر أننى أغوص إلى أعماق بعيدة محشوة بالأفاعى والأشباح والدخان الأسود، ذلك كابوس

قديم كنت أراه فى منامى وأنا طفل صغير، وكان أبى يعلمنى أن أقرأ آية الكرسى قبل أن أنام، وأن أصلى على النبى مائة مرة . . لست أدرى لماذا عادت إلى ذكرى ذلك الكابوس . . آه يا نجمة الليل . . هل أصدق دموعك القديمة، أم تعاليك علىّ فى البداية، أم تشبثك بأهدابى، أم لحظات الوداع وحديثك عن الذئاب القادمين من الصين؟ ماذا أصدق؟ أترانى أصدق الواقع المرير . .

- «غداً تذهب إلى الجبل يا منصور . . ».

وتهت بنظراتى فى ليل قومول الحزين وقلت :

- «وعلى السفوح يبدو الليل صافيًا، وتسمع أغانى الرجال فيطرب قلبك يا منصور، وتنظر إلى النجوم . . . فلا ترى نجمة واحدة . . بل ترى ملايين النجوم تبتسم ابتسامتها الخالدة، الجبل رائع يا منصور . . ».

●●●

الفصل [٦]

تركت «نجـمـة الليل» ورائى، وتطلعت إلى القـمـر وكـان بدراً، نعم كـان يغلفـه السـحـاب المتكاثر، لكنى كنت أقرأ فى وجه القـمـر الابتسامة الخالدة التى ظلت تتسم بالهدوء والوقار منذ ألوف السنين أو أكثر، أنا فى ضوئك يا قمرى المنير يا من تتحدى الظلمات أمضى وسط المراعى قاصداً قيادة الثوار. . وأم أظلم الثوار إذ أذكر منهم واحداً أو مائة أو ألفًا. . إنهم كثيرون. . أمثال الجنرال محمود محيطى والجنرال العظيم عثمان باتور والجنرال شريف خان والجنرال عثمان أورواز. . وهناك على القمم التقت الزمرة- العيون التى انطلقت إلى كل المقاطعات والمدن- ونشرت تقاريرها عن الحال السيئة التى يرزح تحت عبئها شعبنا المناضل فى تركستان. . وفى أواخر العام انطلق السيل العارم. . قال خوجة نياز:

- «سنلتقى فى «أورومجى» حيث قصر الحاكم العام الصينى. . ».

وكنا نعلم أن المرحلة طويلة، وأن دونها دماء وأهوال، أدركت ذلك من كلمات الجنرال محمود محيطى الذى سمعته يقول:

- «سوف تصاحبنا العناية الإلهية..».

قلت- «أيها الآباء العظام إن الأحداث قد أتلفت بعض شبابنا..».

ضحك خوجة نياز وقال:

- «عندما تشرق شمس الحقيقة فإن هذه الخزعبلات كلها تذوب..».

نظر صوب القمم المتوجة بالثلوج وقال:

- «إرادة الله أقوى من أية فلسفة أرضية، إن ما تحسبونه انتصاراً أبديًا إنما هو بريق مؤقت سرعان مما ينطفئ.. وفى كل عصر من عصور التاريخ يتحدى بعض المغرورين كلمات الله، وينالون بعض النصر.. لكن هيهات.. لقد قال الله فى كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].. انطلقوا بعون الله ولا تخافوا أحدًا إلا الله..».

ظاهرة غريبة أدركتُها فى شعب تركستان، هذا الشعب الذى بدا نائمًا مستسلمًا جريحًا ينزف الحسرات واللوعة، ويعشش فى قلبه اليأس، هذا الشعب عندما رأى جموعنا تزحف، إذ به ينفض

الكسل والوهن عن كاهله، ويفتح عينيه فى فرحة غامرة وينطلق معنا.. يا إلهى!! أين الصينيون؟ أننى أراهم يفرون مذعورين، وكثيرون منهم يعتنقون الإسلام ويحاربون إلى جوارنا وتحررت الفتيات اللاتى كن أو ما زلن فى عصمة الكفرة من الجنود الصينيين.. وخرجن يشاركن فى المعركة..

فى إحدى المدن وجدتها تمسك برجل ضخم الجثة والناس من حولها يصفقون.. مَنْ هذه المرأة؟.. امرأة من «كاشغر» اسمها «خاتون».. وضابط صينى أمسكت المرأة بالضابط وربطته فى جذع شجرة ضخمة. أخذ يدور حول الشجرة كالثور الذبيح.. وهى تشوى ظهره بالسياط..

- «قلت لى يا خاتون: أنت لى.. ولن يستطيع أى إله أن ينقذك من بين يدى.. سقتنى إلى كوخ حقير.. أتذكر؟؟ أخبرك ألف مرة.. أننى أكرهك.. وأكرهك.. ولن تنال منى شيئًا.. وأكدت لك أن الله أقوى منى ومنك.. وتركتنى أيها الملعون عارية.. أحضرت رجالك السكارى يتفرجون على امرأة مسكينة عارية مكتوفة اليدين.. وكنت أبكى وأتطلع إلى السماء وهى تمطر.. دعوت الله من أعماقى.. سخرت منى، وقلت لى.. الله لن يسمعك.. الموجود هو أنا.. والآن أين أنت يا صن لى؟؟ انظر إلى الرجال القادمين من كل صوب وحدب.. وتطلع إلى الرايات..

التى تخفق . . هل عرفت الله؟؟ تكلم . . آه . . إنك تسجد الآن . . تقبل التراب . . تستجير بالإله الذى أنكرته . . هل أنت رجل؟؟ أعرف أنك حقير تخاف الموت . . لكنك أيها الوغد جرحت قلبى . . وجرحت جسدى . . والمرأة التى تجرح عفتها قهراً فى شرعنا . . لا عقوبة للجانى إلا الموت . . » .

ونظر خوجة نياز إلى المشهد المثير وقال :

- «يبدو أن المرأة جنت . . » .

وقدم أحد رجال «كاشغر» وقال :

- «كاشغر كلها تعرف قصتها . . » .

- «لا بد أنها قاست طويلاً . . » .

- «هى من بيت عريق يا سيدى . . » .

- «يبدو ذلك . . » .

- «والضابط كان لا يحلو له العبث إلا ببنات الأسر الفاضلة . . لقد قتل عدداً كبيراً من كبار العلماء والمتدينين . . » .

وتقدم خوجة نياز إلى حيث الضابط المربوط :

- «ماذا فعلت؟؟ . . » .

نظر الأسير بعينين متعبتين وقال :

- «كنت أمارس بالأمس حقوق المنتصر. . ».

- «وما هى حقوق المنتصر؟؟».

ولما لم يستطع أن يجيب أردف خوجة نياز:

- «أن يدوس القيم العريقة؟؟».

- «لقد أحببتها وأردتها لنفسى. . ».

- «ألهذا جئت لتحارب؟؟. . ».

- «كنت أفعل ما يفعلون، والمسئول هم القادة».

قال خوجة للواقفين:

- «انظروا إليه. . يريد منا أن نحاكم من أتوا به. . ».

ثم التفت إليه قائلاً:

- «وأمام الله نقف فرادى. . ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ألم تسمع بهذه الآية؟؟ بالطبع لا ونحن لن نحاسبك على جرم قادتك. . بل بما اقترفت يداك. . ».

انهار «الضابط» وهتف:

- «لا أريد أن أموت. . ».

قهقهت خاتون قائلة وهى تخاطب خوجة نياز:

- «سيدى الرئيس . . كان ضحاياه يطلبون منه الرحمة . . سمعت أحد الشباب الشرفاء يهتف أمامه ذات مساء «لا أريد أن أموت» . . الكلمات نفسها . . لكن كان وقحًا . . »

وواصلت الكلام وهى متجهة إليه .

- «أتنكر؟؟ كنت وقحًا . . ورفعت مسدسك بكل هدوء وأطلقت منه مجموعة من القذائف . . » ثم أخذت «خاتون» تدور على السامعين وتقول بصوت ملتاع حزين :

- «كان الضحية يتلوى . . ويتأوه . . عيناه تصرخ باللهفة للحياة . . والكلب الحقير يشرب فنجانًا من الشاى ، ويدخن فى تلذذ ، ويحكم المعطف الواقى من البرد على جسده . . ويضحك . . ثم يجلسنى مرغمة على فخذيه . . ويداعب خدى بخنجر . . تصوروا . . انظروا إلى وجهى إن آثار الجروح القديمة لم تزل بوجهى . . وكان وجهه يشرق بالسعادة وهو يمتص قطرات من دمائى . . » .

ثم صرخت فى نوبة حادة تشبه الجنون :

- «محكمة . . » .

وساد الصمت ، وتعلقت الأبصار بالمرأة الدامعة المتوترة ، وبالضابط المهزوم المربوط فى الشجرة ، وفى لحظات شق الصفوف

شيخ يربو على الستين وفى يده سيف قديم، ولم نكد نفيق حتى كان سيفه قد أطاح برأس «الضابط». . وساد هرج ومرج، بينما صاح العجوز:

- «أنا أبوها».

وتعلقت خاتون بأبيها، وأمر نياز رجاله بالانصراف، واحتدمت المعارك حول «كاشغر» وغيرها من المدن، وأخذ الثوار يمشطون المناطق المحررة من كل خائن أو محتل. . وعشرات القصص المحزنة تروى فى كل مكان. .

كان خوجة نياز يغمغم: «أنا أبوها». . وأخذ يكرر هاتين الكلمتين فى تمعن، كان يشعر أنه هو الآخر أبوها، وكان يؤكد للجميع أن تركستان التى تعانى الأهوال فى حاجة دائمة إلى مسلم بار، وإلى أبناء شرفاء يدافعون عن شرفها وكيانها، وينتقمون لجراحها البدنية والنفسية. .

وتذكرت الملعونة «نجمة الليل». . ليتها كانت مثل «خاتون». . لكن لماذا أفكر الآن فى نجمة الليل؟؟ أنا لست أباها. . وهى ليست كخاتون. . إنها مجرد إفرازات سامة لهذه الظروف العصبية. . وفى كل بستان جميل قد تنبت أشواك تدمى الأنامل، وقد تتخفى أفعى بين الورود. . ونجمة الليل شىء شبيه بالهزيل الحقير. .

«الضابط» . . ويجب أن تكون حربنا ضده وجيشه . . وضد الإفرازات السامة القاتلة التى تشبه «نجمة الليل» وأمثالها . .

وساد السكون شتى الأنحاء، وأعلنت الجمهورية الجديدة فى «كاشغر»، واختير خوجة نياز رئيسًا للجمهورية التركستانية، كما اختير رجل صالح آخر كان مهاجرًا إلى القاهرة واسمه مولانا ثابت رئيسًا للحكومة التى تم تأليفها، وقد تكون مجلس للنواب والوزراء . . وتحررت أراضينا تقريبًا . . وبعد فترة وجيزة اتجهت النية لمحاصرة مدينة «أورومجى» وهى مقر الحاكم الصينى، ومعقله الأخير . .

أما أنا فقد أرسلت فى مهمة تتعلق بتجميع القوات وتوزيع الأوامر إلى «قومول» . . كنت سعيدًا لذهابى منتصرًا إلى «قومول» . . ما أروع أن يعود الجندى منتصرًا إلى مسقط رأسه، إنه يمضى مرفوع الرأس، ينظر إلى الناس فى حب ومودة، يشعر أن رابطة قوية تربط بينهم وبينه، وهو نبض من نبض قلوبهم، وجزء من أرواحهم وآمالهم، وأفراحهم وآلامهم، النصر العظيم- كالألم العظيم- يوحد القلوب، ويصهر الآمال فى بوتقة واحدة . .

الفارس العائد يدق أرض الشارع فى فخر . . ينظر إلى الوجوه الجميلة المستبشرة وهى تطل من النوافذ، وإلى الأطفال الذين لوحت بشرتهم البيضاء ويجيئون فى هدوء وسعادة . . الفارس

العائد يشعر أنه قد أدى بعض الواجب، وهو يقتحم الحصون بالأمس، ويطلق مدفعه القديم، ويطهر المواقع من دنس الصينيين، أنا الفارس العائد يا لها من أغنية حلوة!! أشد ما كان يثلج صدرى أن أرى الغزاة.. ينهارون ويموت كل منطق لديهم.. ويذكرون الله على الفور.. أنا واثق أنهم لم يكونوا يكذبون.. لقد انجابت الغشاوة عن أعينهم فعادوا بفطرتهم - وقت الكرب - إلى الله.. الحقيقة الأولى الأزلية التى لا زيف فيها..

وسرت.. وسرت.. وأنا أدق الأرض بحذاء جديد..

سمعته من خلفى يهتف:

- «ها قد عدت مرة أخرى يا مصطفى مراد حضرت.. أقسم إنك جئت تبحث عنها..».

ونظرت خلفى فإذا بمنصور درغا.. كان يربط ساعده الأيمن بضمادة بيضاء كبيرة، كما كانت رأسه هى الأخرى مربوطة بضمادة صغيرة أخرى وهتفت فى انشراح:

- «كدت لا أعرفك..».

وتعانقنا، بينما أخذ منصور درغا يقول: «قضيت فترة من الزمن فى المستشفى، استخرجوا من ذراعى رصاصتين أو ثلاثة.. لا أدرى.. وقالوا إن شللاً مؤقتًا سيصيب ساعدى.. ليس هذا مهمًا..».

ثم أحنى رأسه وقال فى حزن :

- «مات كثير من الرجال . . أصبحت أكره الموت . . إن الإنسان يقتل الإنسان هذا شيء مريع لماذا كل هذه الحماقات . . غير أنى أحاول أن أنسى . . ، أهز كتفى . . وأرفع مدفعى . . وأسدده عشوائيًا صوب تجمع صينى أو روسى . . لا أريد أن أقتلهم وإنما أريدهم أن يكفوا عن قتلنا . . أريد الأسلحتهم أن تصمت . . الكارثة أن أسلحتهم لا تصمت إلا إذا صمتوا هم أولاً . . وهذا محزن . . لا بد أن يموتوا لكى تكف أسلحتهم عن الجنون . . هيا نضحك .

يا إلهى . . أما زلت تفكر فيها بعد هذه الأيام الدامية؟ . . » .

قلت فى دهشة :

- «مَنْ؟؟» .

- «نجمة الليل . . » .

- «أنا أبوها . . » .

وقهقه منصور عندما سمع كلمتى الأخيرة :

- «أنت أبوها إذن؟؟» .

وشردت ببصرى صوب القصر المهجور وقلت :

- «سمعت عجوزًا فى كاشغر يقول بالكلمات نفسها. . أنا أبوها. . وسمعت رئيسنا خوجة نياز يقولها أيضًا. . أنا أبوها. . ».

وبلدنا يا منصور درغا فى حاجة ماسة إلى من يردد دائمًا: أنا أبوها؟؟

ربت منصور على كتفى فى حزم وقال:

- «الحرب أرهقت أعصابك».

قلت فى أسى:

- «ربما».

- «هل بلغتم أورومجى».

- «لقد حاصرناها. . والمعركة أوشكت على الانتهاء. . ».

ضحك منصور درغا وقال:

- «أما أنا فأقول أنه لا نهاية لعذابنا، ما دمنا بين كماشة: فكها الأول فى الصين، وفكها الثانى فى روسيا. وكلاهما طامع فينا، ويريد القضاء على إسلامنا. . لأن القضاء على الإسلام قضاء علينا. . سمعت فلاسفتهم يقولون ذلك. . وقرأت بعض نشراتهم السرية فى بعض المدن التى قمنا باحتلالها وفروا منها قبل أن تتاح لهم فرصة إحراق أوراقهم. . إن لدى مجموعة كبيرة من هذه الوثاق. . وسوف أحملها إلى خوجة نياز. . إنها حرب صليبية من نوع جديد. . ».

وفجأة مال منصور على أذنى هامسًا:

- «نجمة الليل.. هربت تحت جنح الظلام..».

- «كيف عرفت؟».

- «كان الضابط الذى أخذها لنفسه أول الهاربين..».

- «الفرق بينها وبين خاتون كالفرق بين السماء الأرض..».

ضحك منصور وقال:

- «نجمة الليل.. طول عمرها أرض.. بل أوحال فوق أوحال.. أنت لا تعرفها كما أعرفها.. دعنى أحدثك عنها لأول مرة أيها الصديق العزيز.. لقد كان لها من العشاق أكثر من عشرة.. كانت تجمع بين سائس الخيل، وفتى المراعى، والجندى السمهرى والعجوز الغنى الذى يجود عليها بالجواهر.. أنت يا مصطفى ساذج أبله.. لا تحزن.. أنا لست مثلك تمامًا.. هذه الأيام السوداء جعلتنى لا أثق إلا فى شىء واحد.. فى الإنسان الذى يحمل سلاحه ويحارب حتى الموت هذا عصر فساد وضياع.. العيش فيه لعنة.. لقد ذهبت «نجمة الليل» إلى «أورومجى».. صدقنى لو استطعنا أن ندخل أورومجى، فستجدها تأتى إليك مستنجدة باكية، وتبدو للجميع كشهيدة للعسف والطغيان.. وسيصدق الناس دموعها.. وأنت أيضًا سيرق قلبك..».

وتحسست مسدسى، وقلت بصوت كالضجيج:

- «الخائن يعدم . . » .

ضحك منصور وقال وهو يهز كتفيه:

- «لا تستطيع . . ألم تكن مرغمة على ما فعلت؟؟» .

- «يجب أن نطهر أرضنا من الإفرازات السامة، والنباتات المتسلقة . . » .

ابتسم منصور:

- «الإفرازات من صنع الله . . والنباتات المتسلقة موجودة دائمًا . . أما أنا فقد تزوجت غجرية من الجبل لا تعرف الكثير عن الحرب . . » .

«هيه . . وأنت؟؟» .

- «سأبقى فى قومول ليلة أو ليلتين، وسأعود إلى أورومجى . . » .

- «ولن أستطيع اللحاق بكم قبل أسبوعين . . » .

وودعت منصور، وسرت فى طرقات قومول على غير هدى .

●●●

الفصل [٧]

وبرغم كل شيء فقد كنا دولة صغيرة في مجابهة دولتين كبيرتين هما الصين والروسيا، لكن هل نتخذ من صغر حجمنا مبررًا لكي نفتح أبوابنا للغزاة، ونفرط في أغلى ما وهبنا الله؟ لتمض الحرب شهرًا.. شهرين.. عامًا.. لتمض كيفما شاء الله، وسنبقى طوال حياتنا محاربين فهذا هو قدرنا، ولا حيلة لنا فيه ونظر خوجة نياز حوله وقال:

- «لقد خرّبت الحرب كل شيء».

قال الجنرال شريف خان وكان صلبًا عنيفًا، وكأنما خلقه الله محاربًا:

- «المهم ألا تخرب الحرب ثقتنا بالله وبأنفسنا».

- «مجاعات هنا وهناك..».

- «أعلم يا سيدي الرئيس أن الثمن باهظ..».

- «وقلق يسيطر على البقاع . . » .

- «وماذا نفعل؟؟» .

والتفت إليه الجنرال شريف خان وقال :

- «ولكن عندى فكرة . . أن ندخل أورومجى ، فى معركة يائسة . . » .

- «هذا ما يجب أن نفعله . . » .

- «إما أن نموت أو نسيطر تمامًا على أورومجى وإيلى» .

وفى هذه الأثناء كانت المباحثات جارية بين الحاكم الصينى والروس لإرسال قوات كافية لسحق الثوار ، وكان الروس فى الحقيقة لايثقون فى هذا الحاكم .

ولهذا تحركوا بسرعة ، وساهموا فى عمل انقلاب فى القوات الصينية تزعمه قائد الجيش الصينى ، ونجح الانقلاب وفر الحاكم إلى الصين ، وأصبحت السلطة الكاملة فى يد القائد الصينى ، وباسم تحالف المصلحة والمبدأ ، عقدت اتفاقية جديدة بينه وبين الروس ، تعهد القائد الصينى بجمع المواد الخام من التركستان الشرقية وإرسالها للروس ، فى مقابل مده بالرجال والسلاح لفك الحصار والقضاء على الجمهورية الوليدة ، وفى يوم من الأيام فى شهر ديسمبر أخذت ثلاثة ألوية روسية مجهزة بثلاثين طائرة ، وعشرين

دبابة وخمسين سيارة مصفحة تتدفق عن طريق «إيلى» و«تشوشك» لدينا قوة تستطيع أن تهزم المد الروسى المباغت، وقال خوجة نياز :

- «بالأمس كنا نحارب» .

رد الجنرال شريف خان مستفهمًا :

- «واليوم . . » .

- «حربنا ضرب من المغامرة» .

ثم التفت إلى الجنرال وقال :

- «ومع ذلك، هل هناك بديل للحرب أيها الجنرال الصديق؟؟» .

- «أنا لا أفهم شيئًا اسمه السياسة، علمتنى التجارب أن الحرب هى الأسلوب الوحيد الذى كان لنا . . هى الأسلوب الوحيد أيضًا إلى أن تبقى لنا، ومن العسير أن يستسلم العدو إلا إذا قهر فى معركة . . » .

قال خوجة نياز وهو يرى الطائرات تمطر الثوار بوابلها :

- «إذن فلنمض فى الحرب حتى النهاية . . » .

وفى هذه الأثناء، رسل الروس خبراء فى كافة الشئون العسكرية والتجارية والسياسية، وكان ضابط روسى واحد من اثنين من المستشارين الكبار للحاكم الصينى الجديد .

وكان الروسى داهية خبيثًا لا يستهان بتخطيطاته وآرائه، والتقى بالحاكم وقال له:

- «هناك صورة متخيلة فى ذهنى للمعركة، لو استطعنا تحقيقها لكسبنا الكثير..».

قال الحاكم:

- «كيف؟؟».

- «إن لدينا مجموعة ضخمة من المنشقين من أبناء تركستان الشرقية ونحن واثقون منهم تمام الثقة وفى إمكاننا أن نستعين بهم، ونجعلهم فى مقدمة الجهاز الإدارى والعسكرى للحاكم.. عندئذ تبدو المعركة وكأنها معركة بين الرجعيين من أمثال خوجة نياز وجماعته وبين المنشقين..».

وأبدى الحاكم ترحيبًا حارًا بالفكرة، وعلى الفور تدفق المنشقون وهم تركستانيون شرقيون أصلاً، ونصب أحدهم رئيسًا للمخابرات التى كانت على غرار الجستابو الألمانى، ولعب أقذر الأدوار فى الانتقام من الوطنيين والنيل منهم.. كما تم إنشاء فروع لمؤسسة المخابرات فى أنحاء المدن المختلفة..

وكنا نحارب بكل ما وهبنا الله من قوة، كانت معركة عنيفة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ولم تكن الحرب وقفًا على الرصاص،

والطائرات والمصفحات والدبابات التى تخوض فى أجساد الشهداء منا، بل هناك حرب أخرى من نوع رخيص، فبعد أن قبض المنشقون على زمام الأمور فى إحدى المدن، وأخذنا نحن نتراجع عن أورومجى، سمعنا بمحاكمات عجيبة تجرى، لقد أسر صديقى «منصور درغا»، ثم استطاع الهرب بعد فترة وروى لنا الأعاجيب، فى مبنى المخابرات «ج. ب أو» سيق منصور درغا. . وبدأ منصور يرى أشياء لم يكن يتصورها. . انهار منصور درغا وقال:

- «أنا رجل من الجبال لا أفهم فى الحرب شيئًا، ولا أعرف القراءة ولا الكتابة، أخذنى الثوار بخرافى وبهائمى على الرغم منى، ثم أمسكتم أنتم بى. . أنا برىء لا أعرف عن الحرب شيئًا».

كان مركز المخابرات يبدو كجهنم، ورئيس المخابرات يقف بنفسه يراقب ويوجه الأمور.

- «أيها الضباط الخونة، كيف تحاربون فى صفوف الرجعى الخائن خوجة نياز. . ألا تعلمون أنه قد اختلس أموالكم، وأخفى الملايين عنكم؟؟ ألا تعرفون أنه يتاجر بكم ويستغلكم، وأن لديه الضياع والنساء والذهب؟؟ انظروا فضائحه. . ».

وأخذ ينشر أمامهم بعض المطبوعات المزيفة، والأرقام الكاذبة، والصور الفوتوغرافية الملفقة وفعل الشىء نفسه بالجنرال شريف خان من كبار القادة، وبعد أن حطم روحهم المعنوية بأكاذيبه أشار إلى

زبانيتـه فبـدأ فى استئناف التعذيب . . الآلات الجهنميـة تعمل والوسائل الخبيثة لا حصر لها، والمساكين يبكون ويصرخون، أو يموتون صامتين، واعترافات موهومة تنتزع ويوقع عليها المتهمون الأبرياء قهرًا، ثم تنشر فى صحيفة «سينكيانج» وهناك الكتيبات الصغيرة التى دبجها الخونة، أو ألفها تلامذة الجستابو ومهروها بأسماء تركستانية، لقد اتسع نطاق الحرب، واتخذت اتجاهات عدة، وظل الثوار يحاربون فى استماتة . .

وجاء يوم لا يمكن أن أنساه طول حياتى . . آه ليتنى لم أعش لأرى ذلك اليوم، احتدمت المعركة وتوافد الأعداء والخونة من المنشقين، توافدوا من كل مكان، كانت المعركة ضاربة . . تلفت خوجة نياز حواليه :

- «أيها الإخوان ليس أمامنا إلا الشهادة . . » .

وكان الجنرال شريف خان منهمكًا فى المعركة، والتراب يعفر وجهه المحتقن والطائرات والدبابات تصب نيرانها فى عنف، والقتلى يزحمون الطريق ورائحة الدم تشبع الجو، وتمتم شريف خان :

- «يبدو إننا خسرنا هذه الجولة . . » .

وقال خوجة نياز :

- «لا بد أن ننسحب إلى موقع آخر . . » .

وتكاثر الأعداء وأخذنا نلاقى الأهوال فى انسحاب غير منظم فى حرب غير متكافئة كنت أصعد تلاً قاسيًا لا أكاد أشعر بما يدخل فى قدمى ويدى من الأشواك، ووقفت على تبة عالية وأنا ألهث، وأنظر إلى بعيد . . يا إلهى لقد سقط خوجة نياز والجنرال شريف وغيرهما فى قبضة العدو، ثم سيقوا إلى مركز المخابرات أو (ج . ب . أو) .

لقد تبدد الأمل . . كل شىء فى جوانحى يموت . . الحب . . الأمل . . النصر . . كما ماتت بالأمس فى قلبى «نجمة الليل» . . أيام النضال تكاد تتوارى وتصبح مجرد ذكرى . . كذكرى منصور درغا الذى اختفى ولم أكن أعرف عنه فى حينها أى شىء . . آلمنى أن أرى أبناء تركستان الشرقية الذين انشقوا وعادوا بكل قسوة وعبودية وعنفًا وسخرية بالثوار . . إن أقسى شىء على النفس أن أرى واحدًا من أبناء بلدى مكتنز الجسم، ضاحك العينين، عالى النبرة، ويسوق أخوته كما تساق الشياه . . ويعاملها كحيوانات . .

إن ما جرى لخوجة نياز والجنرال شريف خان يكاد يعتبر سرًا لفترة طويلة من الزمن؛ لأنهم أخذوهما وغيرهما من الأسرى إلى أماكن مجهولة . . إلى جب سحيق لا يعرف عنه أحد أى شىء . . فى مركز المخابرات وقف خوجة نياز مهلهل الثياب . ممزق البشرة ، وإلى جواره الجنرال شريف خان، وكان التحقيق عنيفًا شاذًا .

وقف حاجى نياز محمر العينين عاجزاً، وصاح به مدير المخابرات :

- «ألا تقر بخيانتك؟؟» .

ضحك حاجى نياز، ونظر إليه بعينين يكاد يطفر منهما الدم، وقال :

- «وأنت؟» .

- «أنا ماذا؟؟» .

- « . . أأنا الخائن أم أنت؟؟» .

وهوى رئيس المخابرات بصفعة على وجه رئيس الجمهورية وهز حاجى نياز يديه المقيدتين فى يأس وسخرية وتمتم :

- «قد تحك أنفك ذبابة على الرغم منك . . » .

- «تكلم الحقيقة . . » .

ضحك خوجة نياز وقال :

- «الحقيقة واضحة . . الذين أرادوا المحافظة على حريتهم وشرفهم أيديهم فى الأغلال . . والخونة والأنجاس يمسكون بمقاليد الأمور وبالسياط، وبمفاتيح السجن الكبير . . والحقيقة الأخرى التى أعلمها هى أننى سأموت . . ولهذا فأنا أبصق عليك . . » .

سدد إليه رئيس المخابرات نظرات نارية وقال :

- «ستموت كما يموت الكلب، ولن يعرف أحد طريق جثتك . .» .

قال نياز وقد أشرق وجهه :

- «وما قيمة جثتى؟؟ إن الروح هناك تحلق فى أعالى الجبال . . لأنها لا تموت . .» .

وتدخل مدير تحرير الصحيفة قائلاً وقد أمسك بورقة وقلم متسائلاً :

- «ما معنى الروح يا حاجى نياز؟» .

نظر إليه حاجى نياز وكان يعرفه :

- «ألا تنشر شيئًا فى صحيفتك عن تعاليم بوذا أو كونفشيوس؟؟» .

- «حسنًا . . الروح من أمر ربى . .» .

رد مدير المخابرات :

- «تلك سفسطة الرجعيين . .» .

وابتسم نياز وتمتم الكلمات من القرآن :

- «قال الأولون من الكافرين : لا يهلكنا إلا الدهر» .

همس للسيد حاجى :

- «يجب أن تعترف بأنك غررت بجموع الشعب . . » .

- «ويجب أن تعترف أنت الآخر بأنك تآمرت ضد الشعب الذى حملنى أمانة الحكم ، وحارب بشرف من أجل حريته . . » .

- «ولتعترف بما اختلسته من أموال . . » .

- «ليس لدى أموال خاصة . . كنت آكل وأشرب وأنام مع المحاربين الشجعان . . » .

- «وأنت تحاكم الآن كمجرم حرب» .

- «شرف أن أحارب من أجل طرد الغزاة . . لست مجرم حرب ولكنى مجاهد فى سبيل الله . . » .

وقال القائد :

- «القضاء على الإسلام أولاً . . عندئذ تتفتت كل مقاومة . . » .

- «بالطبع . . » .

جمع مدير المخابرات أوراقه وهو يقول :

- «الأمر ليس فى حاجة إلى اعتراف منك ، فقد قبض عليك متلبسًا بالجريمة فى ميدان القتال . . » .

- «سجل عندك بكل فخر أننى لم أتراجع . . وكنت أتمنى أن أموت شهيدًا . . » .

أما الجنرال شريف خان فقد تدخل قائلاً موجهًا الحديث لمدير المخابرات .

- «لو كنت جنديًا من جنودى لسحقتك بحذائى كحشرة . . » .

رمقه مدير المخابرات بنظرة حانقة وقال :

- «إن إعدامك لا يكفى . . يجب أن تمزق قطعة قطعة ، ثم يرمى لحمك للقطط . . » .

وكان منصور درغا مسجون فى المكان نفسه ، ورأى بعينيه ما جرى ، وشرب هو الآخر من كؤوس العذاب والهوان ، وقد نجا من الموت بأعجوبة ، فقد حدث انفجار أثناء الليل فى يوم من أيام شهر أغسطس أثار ذعرًا بالقرب من مركز المخابرات وأحدث فيه فجوة كبيرة أعطت الفرصة لثلاثة من السجناء كى يفروا ، واستطاع منصور درغا أن يهرب أمام زميلاه فقد أرداهما الرصاص قتيلين . . ولم ألتق بمنصور درغا إلا بعد عام وكان متخفيًا فى زى راع غجرى أعرج رث الثياب يدعى البله . .

وفى هذه الأيام العصيبة ، لعب العدو بأرواح البشر ومن البلاد وثرواتها وعبثوا بكل مقدس ، وقال منصور درغا :

- «تصور . . أنهم يستولون على إناث المواشى فى التركستان ويبعثون بها إلى بلادهم ليقطعوا بذلك تناسلها . . » .

قلت فى مرارة يائسة :

- «تماما كما استولوا على النساء بالأمس . . » .

وكانت التهم تلفق تلفيقًا، ويكفى أن تلصق التهمة بأحد الأبرياء فيؤخذ جميع أقربائه بذنبه وضرب حصار شديد على البلاد حتى لا تتسرب الأنباء المحزنة خارجها، وعم الذعر، وانتشر الخوف وصار الإنسان الوطنى لا يستطيع أن يتكلم بحرية مع ولده، فقد نجح العدو فى أن يجعلوا من نصف البيت التركستانى جواسيس، وأصبح الجار لا يثق فى جاره، وتحول أكثر من ثلاثة أرباع كبار موظفى الدولة إلى جواسيس، ونصف رجال الجيش والطلبة والقرويين والعمال أصبحوا يتفاضون مرتبات من مركز المخابرات العامة، وبعضهم يمارس التجسس تحت التهديد حتى لا يزج به فى معتقل، وإلا يختطف أحد أبنائه، أو تنتزع ابنته، وكانت التهم التى توجه إلى بعض الناس فى غاية الدهشة والغرابة، فهذا طالب يقبض عليه بحجة أنه ينوى الثورة، وهذا عامل يساق إلى التحقيق والتعذيب لأن آراءه تضر بأمن البلاد، وهذا مفكر يقبض عليه بتهمة العمل لحساب دولة أجنبية . . يا إلهى . . كلما تذكرت هذه الأهوال

يخيل إلى أن ما كنت أراه كان مجرد حلم رهيب لا ظل له من الحقيقة . . وكيف أصدق أن مائة ألف يقتلون بوسائل شتى ، وأن حوالى ربع المليون يساقون إلى المعتقلات ، وأن علماء الدين يعاملون معاملة مذرية حتى الموت ، وأن كتب الدين والتاريخ تمزق ، والمساجد تحال إلى مخازن ومسارح . . وتلقفوا النشء الجديد ليتعلم ما يدمر به تاريخه وشخصيته كى يذوب فى طوفان الغزو . .



الفصل [٨]

آه يا مدينة «قومول» ما أكثر ما شاهدت من فواجع وكوارث فبعد أن فشلت محاولة حاكم قومول الصينى أن يستولى على الأمير وثارت ثائرة العلماء واندلعت الثورة، أصبح اسم قومول على كل لسان، كان اسمها رمزًا للرفض والعزيمة، وكانت قومول مثالاً للكرامة والإباء، وكان الرجال يشعرون بالفخر لانتمائهم إليها. . وهكذا المدن- مثل الأجداد تمامًا- قد تكون ذات حسب ونسب، وقد تكون من أسافل المخلوقات، أو ممن لا وزن لهم من كائنات الله. . غير أن الأمر لم يدم طويلاً، فقد تعرضت قومول للانتقام. . وكان قصر أميرها مركزًا لتصويب الرصاص والنقمة والأخذ بالثأر. . وكانت الأميرة داخل القصر وبعض أفراد الأسرة المالكة، وكانت «نجمة الليل» ما برحت تقيم فيه. . وكانت الأسرة المالكة على وشك الفرار، غير أن الضابط الصينى دهم القصر وليس معه سوى عدد قليل من الجنود. . دخل شاهرًا سيفه

ووقعت عيناه أول ما وقعتا على فتاة جميلة تشم وردة حمراء وتداعب بها خدها، كانت نجمة الليل تبتسم وتنظر إلى الضباط نظرات ذات معنى، وقبل أن ينطق الضابط بكلمة سمع نجمة الليل تقول باسمه:

- «نحن لانؤخذ عنوة.. وأنا أحب الشجعان لكنى أكره الجلادين القساة».

نظر إليها فى حيرة، ما معنى كلماتها؟؟ ومن هى أولاً؟؟ إن جمالها لا شك رائع وكلما نظر إليها ازداد افتتانًا، لكنه لا يثق بأحد، يشك فى كل مخلوقات الله.. ويفضل أن يأخذ كل شىء بالقوة والعنف، أليس محاربًا؟ والنصر فى جانبه. هؤلاء المسلمون رفضوا الزواج من الصينيين وثاروا من أجل ذلك.. وسمع نجمة الليل تقول:

- «إذا أخذتنى قهرًا فلن تشعر بأدنى سعادة..».

اقترب منها، وقد أنزل سلاحه الذى كان مصوبًا، وقال:

- «أفهم من ذلك إنك لا تمانعين فى جلسه قصيرة، وكأس من نبيذ..».

توردت وجنتها وقالت:

- «ولِمَ لا أيها الماجن؟؟ لكنى أخجل من رجالك».

- «سوف أجعلهم ينتشرون بالخارج . . » .

قالت نجمة الليل فى اشمئزاز :

- «يا إلهى؟؟ كيف يسعد عاشقان ترقبهما أو على الأقل يعرفان أن هناك من ينتظر . . لا . . لا . . ليذهبا بعيداً بعيداً» .

- «إن بالقصر أشخاصًا نريدهم . . » .

- «أنا سيدة القصر ، وقد أصبحت طوع يمينك» .

قالتها وهى تغمز بإحدى عينيها ، فأمر رجاله بالعودة إلى سكناتهم ، واستطاع إقناعهم بالانصراف الفورى وأقبل نحو نجمة الليل :

- «حسنًا إن جمالك يذهل العقل» .

- «لاتلمسنى . . دع فرصة لكى أتعطر وأحضر النبيذ» .

وهرولت نجمة الليل إلى الداخل ، كانت الأميرة وأمها وأخواتها وباقى الخدم فى ذعر شديد ، والليل قد أطل على قومول بوجهه الأسود ، والرعب يسود جنباته ، وقالت نجمة الليل للأسرة المالكة بحزم وسرعة :

- «آن أن ترحلوا قبل أن تسقطوا سبايا فى أيدى الصينيين ، هذا أمر يؤسف له ، سوف أتولى خديعة الضباط وانسلوا أنتم من الباب

الخلفى، وانطلقوا صوب الجبل، العربة التى أعددناها تنتظر، والرجال يحرسون طريق الهروب، حذار أن تحدث معركة، أية معركة تنشب سوف تجمع عليكم الأعداء، وستفقدون حياتكم أو كرامتكم، إننى على الاستعداد أن أضحى بنفسى من أجلكم، لا تضيعوا الوقت عبثًا فالضابط فى الغرفة، وأنا ذاهبة إليه بالنبيذ ولتذهبوا أنتم . . »، وانهمرت الدموع، واختلطت كلمات الوداع بالتأوهات والنشيج، وعادت «نجمة الليل» وقليل من الدموع ما زال عالقًا بأهدابها، لكنها كانت تغنى أغنية صينية خليعة، كانت قد حفظت بعض مقاطعها من خادمة صينية عجوز، وكانت تحمل زجاجات النبيذ، وحينما رفعت الكأس للضابط نظر إلى الكأس فى شك، ثم ضربه بكفة الغليظة مما أزعجها وأثار الخوف فى قلبها، فقالت شاحبة الوجه :

- «ما جرى؟؟» .

- «لقد دسست فيه السم» .

قهقهقت حتى كادت تستلقى على ظهرها، وسددت إليه- نظرات احتقار وقالت :

- «سأشرب أنا أولاً . . وليس فى تاريخ القصر أحد مات مسمومًا . . » .

- «هنا لا يتصارع الرجال والنساء إلا بالسيوف».

اقترب منها وضمها إلى صدره، فدفعته فى رفق قائلة:

- «لقد خسرت كثيراً».

أدرك ما ترمى إليه فقال على الفور:

- «أنا آسف».

- «فات الأوان».

- «ما معنى ذلك؟».

- «إن نجمة الليل لا ترهب أحداً إلا الله».

- «لكننا قبل كل شىء تربطنا علاقة حب».

- «الشك يقتل الحب أيها الضابط الصينى».

- «الظروف المحيطة تلزمنى بالحذر.. إن العصابات قتلوا الكثيرين من رجالنا.. وأنا أحبك..».

وقفت متسمرة، وقالت فى شجاعة:

- «لا أريد أن أراك الليلة..».

ما أعجب أمرها، هذا ما كان يردده بينه وبين نفسه، وكان فى إمكانه أن يقبض على خصلات شعرها الذهبية، ويضعها تحت

حذائه الغليظ، ويفعل بها ما يشاء، لكن قلبه لم يطاوعه، إنه مأخوذ بأسلوبها وجملها الساذج الوحشى، وكلماتها الصريحة المعبرة.

- «يا نجمة الليل أنا أحبك . . ولن أنصرف قبل أن تعلنى رضاك عنى . . ».

قالت وهى تعطيه ظهرها متوجهة صوب الداخل:

- «تستطيع أن تطلق الرصاص من الخلف . . أنا أعرفكم، لكنى ذاهبة لأستريح فى غرفتى . . ».

قال فى توسل:

- «يا أميرتى الغالية . . ».

التفتت إليه هاتفة بعنف:

- «لست الأميرة، الأميرة المسكينة طفلة صغيرة وقد هربت إلى الجبال كالقطة المذعورة . . أنا فى الحقيقة الوصيفة الأولى، وإن شئت فأنا سيدة القصر . . كان الأمير وزوجته وأفراد أسرته يأتمرن بأمرى . . هل عرفت الآن من أنا . . ».

وطال بينهما الحديث، حتى تيقنت أن الركب الملكى قد غادر القصر هاربًا إلى الجبال، لقد نجحت خطتها، وأدت واجبها نحو

القصر وأهله، وآن لها تنطلق فى حرية . . إن المآسى التى تدور من حولها، والقيم التى تداس أبان الحروب، وسقوط الحكم ثم قيامه، وتغير الحاكم، وتبادل النصر والهزيمة، وليالى الأرق والعذاب والدموع قد أورثها الملل والضيق من الحياة، لقد ذهب الأمير ولن يعود، وذهب مصطفى مراد حضرت ولن يعود، أصبح العالم من حولها عالم حيوانات تر كض وتنهش وتعلق الدماء، وترتكب الدس، ولم تلتفت خلفها وهى تذهب إلى حجرة الأميرة، تلك الحجرة الفاخرة ذات الريش والأثاث الباهر، ثم استقلت على السرير الأميرى، وتنهدت فى يأس، الظلال الحمراء تتراقص على الجدران، والانعكاسات الذهبية تومض ومضات صفراء، والعملاق يقف بالباب ذليلاً كالكلب . . لقد ألهبت نجمة الليل حواسه ومشاعره.

- «أتسمحين لى بالدخول . . ».

- «أغلق الباب من الخارج . . ».

وتصرف حسب أوامرها دون وعى، وكم كانت دهشته حينما وجد نفسه يقف وحيداً خارج الباب، فأدرك المداعبة المخجلة، ففتح الباب مرة ثانية، ودلف إلى الداخل فى هياج كالثور، لم تكترث له، أمسك بيدها فسحبتها بلطف . .

- «لا أريدك الليلة» .

- «وأين أذهب إذن . . » .

- «لقد سقط القصر فى أيديكم . . تستطيع أن تتخذ لك مقرًا فى أية حجرة أخرى . . » .

- «وأنت؟؟» .

هبت واقفة وقالت :

- «تريدنى متعة عابرة؟؟» .

لم يدر بماذا يجيب :

- «حسنًا . . إذا أردت أن تتزوجنى . . فـ . . » .

وسكتت ، بينما نظر إليها فى دهشة وقال :

- «كيف؟؟» .

- «أن تكون على دينى» .

- «وما دينك؟؟» .

- «مسلمة . . » .

- «لكنى» .

- «أنا أحتقر الذى لا يؤمن بخالقه . . إنك تقف أمام رئيسك فى

أدب واحترام، وكأنك فى صلاة، فكيف لا تؤدى فروض الطاعة لخالقك . . » .

قال وهو يلقى بجثته الضخمة على أقرب مقعد مريح :

- «أنا لا أعرف الإسلام» .

-« يجب أن تعرف» .

- «والقيادة ستدمرنى إذا عرفت إننى اعتنق تلك الأفكار الرجعية» .

- «وما يدريهم؟؟» .

- «تريدين الأمر سراً إذن» .

- «نعم» .

-«حسنًا هيا بنا . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «لنبدأ الزواج . . » .

- «هناك طقوس وكلمات يجب أن تقولها . . وهناك مبادئ بسيطة يجب أن تفهمها أولاً . . استبد به الضيق رآها تمعن فى الهروب، وتكثر من المطالب، وتجره إلى أمور لم يكن يأبه لها بالأمس، لماذا كل هذه المتاعب؟؟ وكيف يصبر لهذا الحد . . وأخيراً قال فى ضيق» :

- «أستطيع أن أجرك كالشاة إلى مقرى وأفعل بك ما أشاء . . » .

هزت كتفيها فى عدم اكتراث وقالت :

- «تستطيع . . » .

وبعد أن ابتلعت ريقها قالت :

- «لكنك لن ترى فىّ آنذاك الأنثى التى تسقيك رحيق الحب . . سأكون مجرد وجبة شهية كطعام الشاة . . الفرق كبير لحم الأنثى ولحم الشاة . . » .

ركع على ركبيته وقال :

- «إنك امرأة غريبة . . لقد أصدرت حكم الإعدام على المئات فى هذه المدينة ، وتم التنفيذ فى لحظات . . وقتلت نساء ورجالاً . . الذى يحيرنى هو أننى لا أستطيع أن أفعل شيئًا حيالك» .

ابتسمت نجمة الليل وقالت :

- «وهذا يسعدنى» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنك تتحول تدريجيًا من حيوان مفترس إلى إنسان . . » .

صرخ فى حدة :

- «ماذا تعنين؟؟» .

- «القتلة والظالمون ليسوا بشراً. . وماضيك يبدو كماضى قاطع الطريق. . إننى أريد إنسان شجاعًا. . إنسانًا. . أتعرف معنى كلمة إنسان. . ».

الإنســان فى نظره هو المخلوق الآدمى ذو الشــوارب، والذى يستطيع أن يحارب وينتصر، ويحقق ما يريد، ويقتل ويستولى على الغنائم، ويرفع الشعارات التى يرفعها سادته ورؤساؤه، ويستمتع بالنساء من أى لون وعقيدة وجنس. . ماذا تريد منه هذه المرأة؟؟.

وسمعها تقول، وهى تقترب منه وتقدم له كاسًا من النبيذ:

- «بالتاكيد هناك فرق بين الإنسان والحيوان».

- «الناس جميعًا يعرفون من أنا. . ».

- «الناس بين خائف منك، أو تابع لجيشك؛ ولهذا لن تسمع إلا ما يرضى غرورك. . ».

أمسك كتفيها الممتلئتين فى عنف وقال:

- «ماذا تريدين منى؟؟».

- «أن يكون لقاؤنا فى ظل مبدأ. . مبدأ غير المبادئ الخاطئة التى يضعها الأقوياء بعد أن يهزموا التعساء».

- «إننى أحبك يا نجمة الليل».

- «ولن نلتقى إلا إذا شهدت بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» .

- «لأنى أحبك سأنفذ ما تريدين» .

- «قل الشهادتين . . » .

ولما قالها أردفت قائلة :

- «ويجب أن تمنع رجالك عن القتل والسلب» .

- «سأفعل . . » .

-« أعرف أنكم جائعون . . متعبون . . وتريدون الطعام والنساء والأمان . .

فلتسنوات الشرائع العادلة ، ولا يكون انتصاركم مبرراً لتحولكم إلى حقنة من الوحوش . . أسلوب الوحوش يجر إلى الكراهية والعنف . . ولا تشم فيه رائحة للسعادة . . » .

قال :

- «لشد ما تعجبنى كلماتك؟» .

- «إذن فأنت جدير بالاحترام . . وبالقرب من القصر عالم فقيه اسمه الشيخ مولوى عبد الرازق . . اذهب إليه وأحضروه إلى هنا وليكن معه شاهدان . . وبذلك نتزوج . . » .

شعر ببعض الحرج، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ولا يدرى ماذا يفعل عند ما وثبت من سريرها، وارتدت عباءتها السوداء. ثم قالت:

- «انتظر أنت، وسأعود به على الفور».

قال ملوحًا بسبابته:

-«حذارى.. الهروب معناه أن أحيل المدينة إلى حمام دم..».

رمقته بنظرة عاتبة وقالت:

- «اجلس صامتًا».

وفى خلال الأيام التالية رأى الناس فى قومول «نجمة الليل» تركب عربة فخمة يجرها جوادان، وإلى جوارها الضابط وكل السائرين فى الشارع يفسحون الطريق، لقد تزوجته ولم يكن زواجها بالأمر السهل فى قومول، ما دام السر الكامن وراءه لم يكتشف، ورماها الناس بالخسة والدناءة والدعارة، لو أن الضابط الصينى أخذها عنوة ولالتمسوا لها الأعذار، لكنها- على ما يبدو- قد باعت نفسها للمستعمرين، وتنكرت لخطيبها مصطفى مراد حضرت، وسارت فى ركاب المنتصرين، مما يجعل الشائعات تتردد عنها فى كل مكان، ومئات الأقاصيص تروى عن تبذلها وعلاقاته المريبة بالصينيين وعملائهم، ولم يفكر أحد فى السبب الذى من أجله

توقفت المذابح فى قومول إلى حين، وبدت نجمة الليل أكثر شحوبًا وفتنة، وأصبحت تظهر فى مجتمعات الصينيين يحوطها الاحترام مما جعل العجب والدهشة يسيطران على المواطنين والمواطنات فى المقاطعة.

وعندما انتصر الثوار فى البداية، وأقاموا جمهورية فى «كاشغر» برئاسة خوجة نياز، وأذاقوا الصينيين الأهوال أخذت القوات الصينية تهرب فى كل اتجاه قاصدة عدة أماكن، وكان من نصيب هذا الضابط أن يهرب إلى «أورومجى» وأخذ معه «نجمة الليل» فقد شهدها أهل قومول قبيل الغروب تفر معه.. كانت اللعنات تطاردها، وكانت النسوة يبصقن وراءها، وقد تشجع بعض الأطفال وقذفوا وراءها بالأحجار، ثم ولوا مذعورين.

وبعد أن تمت الاتفاقية بين الحاكم والروس، وجاءت الطائرات والدبابات والمصفحات الروسية، تغيرت الأوضاع، وتقهقر الثوار، كما تم اعتقال رئيس الحكومة وكبار القادة، وتمت السيطرة على الأرض الإسلامية وضد الشعب الإسلامى فى تركستان الشرقية.

وعاد الضابط مساء، ووجدها تبكى..

- «لماذا تبكين يا نجمة الليل؟».

- «الناس يموتون. . وأنا أكره الحرب. . وأخاف. . ».

قال فى ضيق:

- «وماذا نفعل، إنهم يقتلون منا ونحن نقتل منهم».

قالت والدموع تنهمر فى عينيها:

- «تمنيت أن تعود إلى بلادك. . وأنا معك. . وأن نعيش كما يعيش البشر فى سعادة واطمئنان. . ».

أدرك على التو أنها تبدى اعتراضها على احتلال الصينيين لبلادها بأسلوب غير مباشر، فقال دون انفعال:

- «حبيبتى. . هذه أمور كبار لا يحق لمثلى مناقشتها. . الجيش يتحرك بأمر عال. . هكذا فى كل أرض. . ولا عبرة- أمام السياسة- بحق أو بباطل».

ثم نفث دخان غليون وقال والكدر يبدو على وجهه:

- «لشد ما أعانى من التعب. . ».

وصمت برهة ثم قال:

- «أتريدين العودة إلى قومول؟؟ إنها الآن هادئة تمامًا. . وقد أخفق الثوار، وعادت سيطرتنا عليها».

قلت فى أسى:

- «لشد ما أتمنى أن أهيم على وجهي في أرض يعرفني فيها أحد. .».

قال وهو يسمح على رأسها:

- «أدرك ما تعانين منه».

- «أبعد يدك عني. .».

- «لماذا؟؟».

- «أشعر أنها ملوثة بدماء الرجال والنساء».

قال في شرود:

- «أنا في الحرب كالأعمى. . ماذا نفعل؟؟ لقد خلقنا لنأكل. . ولكي نأكل لا بد أن نحارب. . ونموت. . وأنت لي. . أحبك يا نجمة الليل».

ثم صمت برهة وقال:

- «كيف تنظرين إليّ؟؟».

قالت في توتر:

- «أنت سجين. . مريض. . إنسان معذب على أي حال. .».

ابتسم في رضى وقال:

- «هذا يسعدني».

التفتت إليه فى دهشة :

- «كيف؟؟» .

- «لأنك لا تعتبريننى عدواً»

قالت على الفور :

- «أنت عدو لا شك» .

بان الكدر فى عينيه وهمس :

- «ذلك هو قدرى» .

ضحكت نجمة الليل واقتربت منه وقالت :

- «ماذا لو طلبت الانفصال عنك . . ؟» .

هتف فى رعب :

- «ماذا؟؟» .

- «أعنى الطلاق» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنك لست مسلماً» .

-« هل تنسين؟؟ إننى نفذت كل ما طلبه العالم الفقيه» .

- «لكنك تحارب فى صفوف الكفار» .

-« أنا لا أعرف سوى أنى جندى فى جيش» .

ثم صرخ ودق الحائط بقبضته وقال :

- «الجيوش لا تعرف الله» .

- «ولِمَ لا نحاول معرفته نحن؟؟» .

هز كتفه فى سخرية وقال :

- «وما قيمة ذلك؟» .

- «أن نعرف طريق السعادة» .

- «آه . . الكافرين بالملايين وهم أكثر عدداً من المؤمنين . . والعالم منذ الأزل هكذا . . دعى هذا الأمر فسوف نتعذب بلا فائدة . . » .

وجفف عرقه :

- «إذا رحلت فـ . . » .

ولم يكمل كلامه ، فاقتربت منه وقالت :

- «أنا أحبك ، لكنى لن أبقى لحظة واحدة معك إذا تسببت فى قتل واحد من أبناء شعبى . . » .

- «أهدئى يا حبيبتى . . فلم يعد لى شأن بالحرب الفعلية ، فأنا

الآن مشرف على نقل المواد التموينية . . والأمر لم يعد فى أيدى الصينيين . . إن الروس قد ملكوا زمام كل شىء الآن . . ».

ثم استطرد ساخراً :

- «ثم هناك الكثيرون من أبناء تركستان قد باعوا أنفسهم للشيطان . . إنهم يقتلون ويرتكبون أشنع الجرائم ضد مواطنيهم . . ألم تعرفى . . ».

أغرقت عينيها فى الوسادة وانفجرت باكية . . .

●●●

الفصل [٩]

تحولت بلادى الخضراء، ذات الفواكه والزروع المتنوعة والمعادن الكثيرة، أقول تحولت إلى جحيم لا يطاق، وكيف يعيش الإنسان فى أرض فيها الموت، ويبث الرعب فى جنباتها ويلهو بمصائرها الأجانب الغزاء، ما أفظع أن تعيش غريبًا فى بلدك الحبيب، الحقيقة لم أكن أنا الغريب، بل شعرت أن تركستان هى الغريبة.. هى الشاردة الهائمة على وجهها فى عالم كله ابتزاز وسجون وقتل، والشىء الذى أعجب له هو أنى مازلت حيًا حتى الآن، لكنها إرادة الله، وما أقل ما بقى من المساجد، قلة من الشيوخ الطاعنين فى السنين يتوجهون إلى المساجد خفية، ويرتلون الصلوات فى نبرات دامعة حافتة، وعيون الجواسيس تراقبهم قد لا يصيبهم أذى، لكن بنيهم وأهليهم معرضون دائمًا للانتقام وكنا نمر على المساجد التى استولوا عليها وأحالوها إلى مسارح أو أماكن لسكنى الشرطة والإدارة، ونتمسح فى الجدران ونبكى فى هدوء، فمن يبكى علانية

يعرض نفسه لموت محقق، وكنت أنتقل من بلد إلى بلد واتخذ لنفسى فى كل مرة اسمًا جديدًا. . آه. . إنها ذكريات قديمة، لم أعد أذكر الأسماء التى انتسبت إليها، وفى أورومجى وجدت أن تغيير الاسم وحده لا يكفى لقد اشتغلت حمالاً. . وضعت على ظهرى وقاء ثقيلاً من قماش الأجولة وأمسكت بمخلبين حديديين، وتركت لحيتى وشاربى ينموان كيف شاء لهما وبدت أقدامى الحافية متشققة، وكأنها عاشت فى الطين عشرات السنين، ولزمت الصمت، أحيانًا إذا تلفظت بكلمات معقولة تشى بك الكلمات، وتكشف عن شخصيتك، وفى المساء ألجأ إلى حجرة قذرة صغيرة، وأعبد الله. . كنت أتخيل أن الملائكة تمسح دموعى الحارة، إن حضارتنا تمحى. . تذوب، الروس يأتون بعشرات الآلاف، والصينيون يأتون وكذلك الصينيات حتى يحدث تزاوج بين أبناء تركستان وبين أبناء الغزاة الصينيين. . قلت أنا أعمل حمالاً. . كنت أحمل على ظهرى خيرات بلادى من كل الأنواع وأضعها فى السيارات الضخمة والقطارات كى تشحن إلى أرض العزاة كل الأشياء كانت تشحن، معادن وفواكه وبهائم ومزروعات. . وكان للغزاة الكبار أماكن للتجمع. . هناك يرقصون ويشربون ويسهرون ويغنون، وكنت أرى العجب العجاب. . ما أكثر الخونة الذين باعوا ضمائرهم ودينهم واستسلموا لرغبة الغزاة ونواياهم، وبذلك

أمكنهم أن يتسلموا بعض المناصب المهمة، وبين عشية وضحاها تحولوا إلى نوع جديد من البشر. . كلما نظرت إلى وجوههم خيل إلىّ أنهم لم يعودوا تركستانيين بالمرة، إن طريقتهم فى المأكل والمشرب والملبس، حتى أسلوبهم وسلوكهم. . وكل شىء فيهم تغير، إنهم يقلدون السادة الغزاة فى كل شىء، ويلوون ألسنتهم بلغة العدو كلما نظرت إلى ملامح الوطن أصاب بالرعب، كيف تعود تركستان الشرقية العروس الطاهرة الفاتنة ذات الطهر والنقاء.

اليأس يدب فى نفسى. . وأنا أدب على الأرض حزينًا تثقلنى الأحمال التى أنقلها إلى السيارات أو إلى السفن وأثناء تجوالى فى يوم من الأيام رأيتها. . أصابنى الذهول. . صرخت دون وعى:

- «نجمة الليل. .».

وتوقفت العربة الأنيقة التى يقودها أحد الصينيين، ونظرت بوجهها الشاحب، أفقت إلى نفسى، أدرت وجهى إلى وجهة أخرى، وأزمعت الفرار، لكنها طاردتنى بعربتها حتى أمسكت بى. . نظرت إلىّ بعيون جامدة لا تطرف.

وقالت:

- «أريدك أن تتبعنى إلى القصر. .».

ارتجفت وهتفت فى ضيق:

- «أنا لا أعرفك . . أنا أريد . . ».

قالت وكانت كلماتها أمرًا لا يرد :

- «ستأتى إلىّ . . السيد يريد رجلاً يعمل فى خدمتنا . . وهو غائب خارج «أورومجى . . ».

- «لابد أن تحضر . . ».

وقبل أن أفيق من هول المفاجأة ، كانت العربية الأنيقة قد انطلقت ، وسمعتها قبل أن تنطلق تصف مكان القصر فى كلمات قصار ، وعدت إلى حجرتى المظلمة العفنة أصلى وأبكى . . فى كثير من الأحيان يبدو لى الموت أروح بكثير من الحياة ، الموتى لا يشعرون بشىء ، . . وأحيانًا أخرى يملأ قلبى اليقين ، بأن الإسلام لابد أن ينتصر ، وأن الحرية حتمًا ستجىء ، أنا معلق بين اليأس والأمل ، راغب فى الموت أحيانًا ، متشبث بالحياة أحيانًا أخرى أنا الممزق المعذب الضائع الذى لا يعرف له طريقًا يسير فيه ، أو ملجأ يهنأ فيه .

البحث عن قصر السيد ليس صعبًا ، القصر فى مكان هادئ منعزل ، وعليه قليل من الحرس ، لم أستطع أن أذهب بثيابى الرثة ، خلعت ملابس الحمال ، ولبست شيئًا يليق بالحارس القديم فى قصر حاكم «قومول» الذى انتهى أمره وتشتت عائلته . .

لم يمنعنى أحد . . نظر إلىّ حارس القصر وقال :

- «أأنت القادم لمقابلتها . . ».

هززت رأسى فى خوف . . وحمدت الله على أنه لم يسألنى عن اسمى ، مع أن اسمى قد لا يثير خطرًا ذا بال ، فالعدو عندما يتمكن ويحكم قبضته يتوارى الخوف فى قلبه ، ويتصرف بشىء من الاستهتار ، ومن حسن حظى أن البيت كان خاليًا .

يا إلهى لماذا أتيت؟؟ وماذا أقول لها؟؟ وهل أقبل العمل فى خدمة سيدة أصبحت من سيدات المجتمع الراقى ، وقد كانت بالأمس مخطوبة لى ، ما معنى ما أفعل؟ هى فى السماء ، وأنا ملقى على الأوحال والموت يطاردنى كما يطارد كل ثائر قديم ، لكن حب الفضول يدفعنى دفعًا لا هوادة فيه ، كانت تجلس على كرسى من القطيفة الحمراء ، وترتدى لباسًا أسود يزيد من فتنتها ، لشد ما تغيرت نجمة الليل إنها تبدو حزينة وسيمة وقورة ، لا أرى أثرًا لطيش الشباب ، ونزوات الصبا ، تبدو كأرملة فاتنة؟؟

- «كنت أريد أن أراك منذ زمن طويل . . ».

نظرت إليها دون أن أجيب .

- «ظننت أنك قد لقيت حتفك فى الحرب . . ».

اعتصمت بالصمت ، حاولت أن أتكلم فلم أستطع .

- «واليأس يجهل الإنسان يفعل أى شىء يا مصطفى مراد حضرت . . » .

وانتظرت أن أفتح فمى بلا فائدة، هبت من مقعدها واقفة وقالت :

- «لشد ما احترم الرجال الذين ماتوا فى المعركة، تمنيت ألا يموت أحد على أعواد المشانق أو فى ساحات السجون . . يجب أن يموت المناضلون فى الميدان ولا يسلموا أنفسهم للعدو أحياء . . » .

ووجدتنى اقترب منها فى جرأة وأقول :

- «ولماذا سلمت نفسك لهم حية يا نجمة الليل» .

ضحكت فى ألم :

- «هأنت تتكلم أخيراً . . حسنًا . . أنا لا أبرر تصرفاتى، عندما سقط القصر أردت أن أحمى سكانه، وأردت فى الوقت نفسه ألا أكون مطية لكل غازٍ ، لهذا اخترت رجلاً وتزوجته . . » .

قلت فى دهشة :

- «كيف تزوجت؟؟» .

- «كما يتزوج الآلاف . . اعتنق الإسلام وتزوجنى» .

وتنهدت فى حسرة وقالت :

- «الأمر مر ببساطة غريبة . . عندما رأيته متشبثًا بى ، وضعت شروطى ، وقبلها . . أعرف أن إسلامه شىء ظاهرى بحت لا حرارة فيه . . وأعرف أننى أخدعه وأخدع نفسى لكنى . . . ماذا أقول لك . . لم أكن على استعداد لأن ينهشنى الذئاب . . لقد تزوجنى وحمانى ولم يزل يحبنى . . » .

قلت فى شىء من الدهشة :

- «وكيف تعيشين فى كنف رجل لا تحبينه . . » .

هزت كتفيها سخرية وقالت :

- «كما تعيش بلدى تركستان تحت وطأة الاحتلال . . كما تعيش أنت فى «أورومجى» التى يحكمها العدو . . كل شىء هنا يمضى بلا روح . . » .

غمغمت :

- «الروح؟؟» .

قالت :

- «نعم افتقدنا عشق الأشياء وحبها ، ولهذا نأكل وننام ونشرب ونلهو بلا روح . . ونتحرك كأننا تماثيل من الشمع تحتاج من ينفخ فيها الروح . . كاللعب اليابانية الجميلة التى تجرى وتصدر أصواتًا

وهى من خشب أو صفيح . . الحياة الحقيقية لم يعد لها وجود، نحن نضحك ونبكى وننفعل كممثلى المسرح . . هل فهمت يا مصطفى مراد حضرت . . ».

وصفقت بيديها فى عصبية، فجاءت رئيسة الخدم . . وقدمتنى إليها قائلة:

- «هذا خادم أمين . . اسمه «تورسون» . . أريده أن يتزين بأفخر الثياب . . وأن يكون ممن يليقون بقصر السيد».

أسمَّى الآن «تورسون» أتجول فى قصر السيد . . أننى أتحرك كالمنوم . . سيد القصر امرأة تركستانية جميلة . . يبدو أنها ارتاحت لمرآى . . وفى غرفة الخدم الأنيقة المريحة نمت لأول مرة منذ سنتين هادئًا بعض الوقت، لم يزل ظهرى يؤلمنى لكن الحمام التركى قد خفف الكثير من آلامى، وبعد أن حلقت لحيتى وشاربى ونظرت إلى المرآة . . عاد الشباب . . يا إلهى أن عينى تطلقان صراخ الجبال الوحشى برغم وداعتى . . هأنذا أفكر فى «نجمة الليل» . . شعورى نحوها شعور الرجل الذى اغتصبت أنثاه . . أصبحت نجمة الليل . . كمدينة أسيرة احتلها العدو، المعنى الذاتى فى العشق والحب تحول إلى لوثة وطنية . . ها . . ها . . إننى أضحك . . إن تفكيرى لم يعد على ما يرام . .

وفى اليوم التالى اصطحبتنى فى عربتها الأنيقة . . ونزلنا إلى منطقة تزحمها الأشجار والأزهار والفواكه خاصة برجال الاحتلال . . الجميع يعرفون «نجمة الليل» فقد هبّوا لتحيتها، وأفسحوا لها الطريق . . ونزلنا، ثم انطلقنا عبر الأغصان المدلاة والزهور والفواكه الشذية ومضت أمامى . . ومشيت خلفها صامتًا . . قالت :

- «قالوا عنى إننى طلقت الشرف والعفاف . . » .

وقطعت غصنًا صغيرًا، ونظرت إلى الشمس الغاربة بوجهها الشاحب وهمست :

- «أهل قومول تروج بينهم الأكاذيب بسهولة . . لماذا اهتموا بقصتى تلك الاهتمام كله؟؟» .

لم أكن سوى وصيفة تافهة فى قصر الأمير . . » .

والتفتت إلىّ وأمسكت بيدى :

- «ألم أدعك للزواج فرفضت . . » .

- «كان الوقت رحيلاً . . وكنا على أعتاب الموت» .

ضحكت فى مرارة :

- «ولم نزل على أعتاب الموت، أتعرف كم عدد الذين أعدمتهم الحكومة المحتلة . . إنهم . . أكثر من مائة ألف . . » .

وقلت فى دهشة :

- «أما زلت تفكرين فى الثوار والشهداء؟؟» .

نظرت إلىّ باحتقار وقالت :

- «وماذا تظن؟؟» .

- «مثلك لا مجال لها أن تفكر فى أمر كهذا . . » .

- «ألست تركستانية مسلمة مثلك؟؟» .

وساد الصمت فترة أخرى ، كان النسيم باردًا ، والشمس فى المغيب تصب أحزانًا من نوع عجيب ، وبعض المآذن القديمة ترقد فى صفاء الأصيل كلحن عتيق ذى رنين أثرى تاريخى ، والقباب نائمة كسلحفاة عجوز رأيتها ذات صباح فى إحدى حدائق الحيوان ، والمبانى تبدو تحت السفوح التى تزرعها وكان لا يعنيها شىء . . وهمست نجمة الليل وهى تقذف بوردة حمراء :

- «فكرت فى قتله . . » .

- «مَنْ؟؟» .

- «زوجى الضابط . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «ظننت أن ذلك واجبى . . لكنى أسألك بدورى، أيهما تفضل أن أقتله أم أروضه؟؟» .

هززت كتفى متسائلاً :

- «وما قيمة ترويضه؟؟ المذابح والعذاب والعنف فى كل مكان» .

- «وما قيمة قتله . . هأنذا أسألك بدورى . . » .

- «إنه الثأر المقدس . . » .

- «ولكنى ربحت أكثر وأنا أورضه . . » .

وقفت بوجه صلب وقلت :

- «سيدتى إن معايشة العدو أمر كله زيف وكذب» .

التفتت إلىّ فى دهشة، ثم قالت :

- «أتظن ذلك؟؟ معناه أننى كنت أخدع نفسى بفلسفة عرجاء كى أنجو من العنف والضياع . . وكى أحيا . . ها . أتظن ذلك؟؟»، .

طأطأت رأسى :

- «ولهذا احتقرك أهل قومول؟؟» .

انهمرت الدموع من عينيها، واقتربت مني وأخذت تهزني في عنف وتقول:

- «هؤلاء الحمقى لا يفهمون.. كان يجب أن أنقذ أسرة الأمير.. وكان لابد أن أدفع الثمن.. كلنا يحب الحياة ويكره الموت..».

ثم أخذت تجفف دموعها وتقول:

- «وأنت يا مصطفى منراد حضرت.. ماذا تظنني؟».

- «تورسون.. اسمي تورسون.. لتنسى الاسم القديم..».

- «ما رأيك؟؟».

- «أقولها بصراحة.. كسرة خبز جافة على سفوح الجبال مع الرجال المناضلين.. أسمى لدى من مائة نعجة تنحر في قصرك الشامخ..».

انسكبت قطرات من السماء، بدأ البرد أشد مما كان، وكنا نسمع لقطرات المطر طرقعة خفيفة، شعرت أن الحذاء يكاد يخنق قدمي، وأن الياقة الخضراء تضغط على عنقي، أكاد أموت برغم إحساسي بالدفء، ذلك الإحساس الذى افتقدته منذ مدة طويلة..

- «مصطفى».

- «خادمك تورسون..».

- «إلى أين؟؟».

- «إلى حيث كسرة الخبزة والرجال العظام على السفوح..».

- «سندبر الأمر مليًا..».

اختفيت حينما عاد سيد القصر من سفره لوقت قصير، لكنى رأيته يدلف إلى القصر ويبحث عن نجمة الليل بعيون نهمة عيون تترى قديم اعتصرها بين ذراعيه وأخذ يقبلها، ويلف بها ويدور، وهى تبتسم ابتسامة صفراء، وتبعث بنظراتها هنا وهناك، لعلها كانت خائفة من أن يقع بصرى عليها..

- «هل أنت سعيدة بعودتى».

قالت دون أن ترفع بصرها إليه:

- «كل السعادة.. لكن رجال المخابرات يقتلون الناس بالمئات..».

- «هذا أمر آخر.. لماذا تفكرين الآن؟ ليس لى فى الأمر حيلة..».

- «لماذا لا يكون لك فى الحياة موقف؟».

- «بل موقف محدد يا حبيبتى..».

- «ما هو ؟؟».

- «طالما حادثتك . . موقفى هو أن أؤدى عملى . . ».

- «الفرق كبير بين أن تؤدى عملك وتؤدى واجبك».

- «عملى هو واجبى . . ».

- «أريدك إنسانًا . . ».

- «أنعود للجدل العقيم يا نجمة الليل».

- «الإنسان الحقيقى هو الذى يشعر بأسى المعذبين والمضطهدين . . ».

قال فى شراسة مباغتة:

- «يجب أن تفهمى أن هؤلاء المضطهدين لو ترك لهم الحبل على الغارب لقضوا على حياتى وحياتك أنت أيضًا . . ».

قالت بهدوء غريب:

- «هذا لا يهم . . المهم أن تؤدى الواجب».

صاح فى ثورة:

- «وأنا من أكون؟؟ مجرد فرد فى هذا الجيش الكبير . . ترس صغير فى آلة ضخمة . . أهكذا تقابلين زوجًا عائدًا من سفره؟؟

أين حبنا القديم؟! تعالى . . ودلفا إلى حجرتهما الخاصة، قلت لنفسى هذه الملعونة تلعب بى وبه، ولو عشت إلى جوارها أكثر من ذلك لتسممت كل أفكارى . . إن النقاء الحقيقى ليس هنا فى المدن، بل هناك على سفوح الجبال حيث يعيش الرجال أحرارًا، وعلى أكتافهم السلاح، يجب أن أرحل فى أقرب فرصة ممكنة . . ».

نظر إلىّ الضابط عند الظهر أثناء طعام الغداء نظرات نافذة وقال:

- «هل هذا هو الخادم الجديد».

- «نعم . . إنه كفء مخلص فى عمله».

- «من أية مقاطعة أنت؟؟».

- «اسمى تورسون من مقاطعة التاى . . ».

المائدة عامرة بأطيب، والشعب فى الخارج يأكل أوراق الشجر، ويلتقط الفتات ويتضور جوعًا، والأطفال المساكين ينظرون بعيون مفتوحة على الآخر إلى الخيرات تشحن فى العربات، أو تنقل إلى بيوت الغزاة . .

دارت رأسى . . وأنا أنظر إلى السكاكين الموضوعة على المائدة . .

- «تستطيع أن تتصرف أنت يا تورسون».

قالها فى رقة، وعدت إلى المطبخ أتخبط كالثمل الثائر لا يعرف المهادنة.. والكراهية تأكل قلبى كما تأكل النار الحطب، وحربهم للدين وعقائده يدفعنى لأن أرتكب حماقة.. ليس الأمر خاصًا بى، ولكنه ثأر..

●●●

الفصل [١٠]

إننى أعـيش فى بيت أحـد أعـدائى، إنه ليس مـجـرد عـدو، بل غريم استولى على من كنت أحب، يخيل إلىّ لو مضى علىّ فى هذا المكان لتحولت إلى آلة . . إلى إنسان شبيه بنجمة الليل، فالحياة الهادئة وتوافر الطعام والملبس والهدوء والركون إلى عش جميل كهذا يقتل فى الإنسان روح الثورية والجهاد، مشكلة أخرى أننى أرى فى عينى «نجمة الليل» أشواقًا غريبة حادة، أصبحت أخجل من نظراتها، وفى أغلب الأحيان أهرب منها، وأجد نفسى فى كثير من الليالى أفكر فيها، وأغار عليها . . هذا البيت تسكنه شياطين من نزوات وخطايا، بالأمس أقيمت فى البيت حفلة راقصة، اختلط الحابل بالنابل، كانت «نجمة» لا شك هى نجمة الحفل، العيون تلاحقها، وكل الضباط يريدون مراقصتها، وشرب زوجها حتى ثمل، لكنهم فى الفجر استدعوه لمهمة عاجلة فخرج يترنح بعد أن ارتدى معطفًا سميكًا، الأمر يبدو عاديًا، لكنى وجدتها تأتى إلى

غرفتى، ازداد وجهها شحوبًا من كثرة السهر، أحاطتنى بذراعيها، ووجدت شفتيها تقتربان . .

- «سيدتى . . يجب أن أعد طعام الإفطار» .

- «لست أشتهى شيئًا، وأنا لست سيدتك . . » .

- «القصر كله عيون . . » .

- «لا أستطيع الصبر» .

- «ما معنى ذلك؟؟» .

- «لا تفهم؟؟» .

- «وأنا أكره الخيانة» .

- «خيانة الخائن ليست خطيئة . . » .

- «وأنا رجل مسلم أعرف الله . . » .

هل كانت تريد الانتقام من زوجها، أم تريد أن تقدم نوعًا من العطف أو الشفقة، أهو الحب القديم ثار وتمرد؟؟ وأمسكت بيدى فى توسل، وأنا أهرب من نظراتها ولمساتها مخافة أن تضعف مقاومتى، وهمست فى انفعال :

- «على سفوح الجبال رجال يتضورون عذابًا وجوعًا» .

-«هم رجال حقًا، لكنهم يعيشون حياتهم . . » .

- «فى الحدود التى أباحها الله . . ».

نظرت كذئب جائع مفترس وقالت مهددة:

- «أنت تعرف أننى أستطيع عقوبتك».

- «أهذا هو الحب؟؟».

- «نعم . . ».

- «عندما يضمك سجن من سجونهم الرهيبة ويلفك الصمت والظلام، وتهوى السياط على جسدك . . عندها سوف تحلم بدقائق تقضيها إلى جوارى . . ».

قلت لها فى ثقة:

- «لقد نذرت نفسى للموت».

- «أنت تعلب بالنار . . أنت زوجى الحقيقى . . ».

- «لكنك فى عصمة رجل أسلم . . وإن كان إسلامه أمرًا ظاهريًا . . ».

- «إذن لماذا أتيت إلى هنا؟؟».

باغتنى السؤال، صحيح، لماذا أتيت؟؟ لقد كنت أفكر فى الانتقام طول حياتى من هؤلاء المعتدين، لكن أين الانتقام؟؟ ودق قلبى، هناك حقيقة أحاول إخفاءها، لقد كنت أحب «نجمة الليل»

إن قبولى المجىء إلى هذا القصر يمت إليها هى الأخرى بصلة، وتركتنى وانصرفت، لم أرها طوال اليوم، وبقيت أفكر، لماذا ساءت الحال، وتحكم فى أرضنا الغريب، قال فى فى الزمن الغابر أحد خطباء مساجد «كاشغر»:

- «يا بنى الإسلام هو العزة، فمن تمسك به عز، ومن تركه ذل، وبلادنا استسلمت لنوم عميق، وغلبت عليها الدعة والاسترخاء والعبث، وأخذ الناس ينسلون عن الدين عروة عروة.. يا بنى لقد طغى الغنى، وضاعت الحكمة، ورضخ العلماء للأمراء، وعم الفساد والفقر والجهل، وانتشرت المعاصى.. يا بنى هذا هو بداية الانهيار..»، وقال أيضًا:

- «إن فى الشرق أعداء وفى الغرب أعداء، وهم يعتصمون بالقوة والكثرة، ونحن نعتصم بأمجاد قديمة، والأمة القديمة لا تصمد وحدها، وقال لى: «يا بنى المسلمون ممزقون، تركيا تنهكها الحروب والمظالم، والعرب تحت سنابك خيل العدو صامتون، والكفر ملة واحدة، والمسلمون ملل عدة، وبذلك تستطيع أن تفسر لماذا يكون النصر، ولماذا تكون الهزيمة..».

إننى أتذكر هذه الكلمات جيدًا.. وكلمات أخرى كثيرة يرددها خوجة نياز والجنرال شريف خان، وغيرهما، كانوا مؤمنين شجعانًا، وفى ساحة الموت لقوا الله دون خوف، لا شك أن مجيئ

لهذا القصر كان نزوة من نزوات الشيطان. . لكن بعد أن أفعل شيئًا . . مقابل الوقت الذى أضعته هنا، وبعدها أسرع بالذهاب إلى الرجال فى الجبال. .

يقال إن البطل العظيم «عثمان باتور» أحد رجالنا الشجعان يجمع الرجال ويستعد لثورة جديدة. . فلماذا أبقى هنا. . وحاولت نجمة الليل أثناء غياب زوجها أن تطمس المعانى التى تختمر فى قلبى ورأسى لكننى كنت أقاوم. . كان من الصعب أن أقاوم فلنجمة الليل إغراء من نوع قاتل، إن سيطرتها على الضابط هذه السيطرة العجيبة لا تعنى سوى إنها امرأة فى غاية القوة.

وعاد الضابط بعد يومين، كان مرهقًا منزعجًا سمعته يقول لها:

- «إننا على أبواب متاعب جمة».

- «لماذا؟؟».

- «عثمان باتور والثوار بدأوا حرب العصابات. .».

- «وماذا يضيرك؟؟ هل تظن أنهم قادرون على هزيمتكم. .».

- «إنهم يداهمون المراكز الصناعية، ويختطفون الضباط، ويقتلون الكثيرين، لو كانوا فى معركة مكشوفة لأمكن القضاء عليهم. .».

وبدا فى عينيها بريق الفرح لكنها أخفته، كان منهمكًا فى الطعام والشراب، غارقًا فى التفكير، وفى المساء علمت أنها خرجت معه وحدهما للتنزه فى إحدى الحدائق الخاصة وطال بقاؤهما فى الخارج، لكن عند منتصف الليل عادت تصحبها ضجة كبرى، وامتلأ القصر بالضباط ورئيس الاستخبارات.. ماذا جرى؟؟ لقد أصيب زوجها فى الليل برصاصة قاتلة.. فحملوه إلى القصر، وهى تبكى وتصرخ وتشد شعرها وتقول:

- «لقد رأيت القاتل.. لقد أطلق الرصاص وركب جواده وهرول صوب النهر.. أستطيع أن أميزه من بين عشرة آلاف..».

وكانت تصيح وتولول، وبان الغضب والضيق فى أعين الحضور، وأخذوا يستجوبون الأرملة الحزينة وهى غارقة فى دموعها، كانوا يحاولون تهدئتها، لكنها كانت تحرضهم على الثأر والانتقام، واعتقال كل المشتبه فيهم فى «أورومجى».

وقال رجل الاستخبار:

- «هذا هو الحادث الثالث اليوم فى «إورومجى».. إن رجال عثمان باتور يثيرون الاضطرابات.. لا حل سوى العنف.. والمزيد من العنف.. لقد قلت يجب أن نقتل كل تركستانى يشتبه فى أمره.. لكنهم يرفضون وجهة نظرى إن جميع التركستانيين مشتبه

فى أمــرهم . . أنا أعــرف كــيف التــقط الخــونة . . لن أترك هذه الأحـــداث تمر دون عـــقـــاب ، وقـــد أعلنا حـــالة الطوارئ فى أورومــجى . . وكـانت «نجـمـة الليل» فى حـالة من الحـزن والألم والتعب يرثى لها . . لكن الغريب أن الكثيرين من رفاق القتيل كان يروحـون ويجيئون ، ويقدمون التعازى لنجمة الليل ، وكنت أرى فى عيونهم الفرح و الأمل ، الكثيرون كانوا يطمعون فيها بالرغم من أن دماء «القتيل» لم تجف بعد . . وقررت نجمة الليل فى النهاية أن تعتكف فى بيتها أسبوعًا لا تقابل فيه أحدًا . . وكثرت الإشاعات فى المدينة ، وسادها جو من الخوف ، وكان الضباط الأجانب يعانون من قلق شـديد ، وبدا الأسـود والنمـور كـالأرانب . . لقـد كنت على وشك الرحيل من ذلك القصر ، لكن هذا الحادث أخّر رحيلى . . حـسنًا يجب أن أنتظر . . وذات مـسـاء وجـدتهـا تدخل غـرفـتى انتفضت واقفًا وأنا أهمْهمُ :

- «سيدتى . . » .

نظرت إلىّ بعينين ثابتتين لا تطرفان :

- «ألا تعرف القاتل؟؟» .

- «مَنْ؟؟» .

- «حسنًا . . أنا الذى قتلته . . » .

ضحكت فى شماتة وقالت :

- «نعم . . أتدرى لماذا؟؟» .

كانت تتحدث فى توتر ، وكنت مذهولاً لحديثها ، فلم أنطق بكلمة واستطردت هى تقول :

- «لقد قاد كمينًا أوقع بعشرة من الثوار ، كانت عملية رهيبة ، لقد اعترف لى بنفسه . . وبرر ذلك بأنه لا يستطيع مخالفة الأوامر . . لقد وعدنى قبل ذلك أن يتفرغ للإمدادات التموينية . . وليلتها لم أنم . . حاول مضاجعتى . . لم يبد عليه أدنى تأثر أو انفعال ، كان يمزح ويضحك وكأنه لم يفعل شيئًا . . وتصورت . . ماذا لو كنت أنت يا مصطفى حضرت أحد هؤلاء الثوار العشرة . . أخذته . . قلت له لنحتفل بانتصارك ونشرب النخب . . كان سعيدًا . . وروى الكثير من العمليات الناجحة ، وعما أعدوه للثوار . . إن «عثمان باتور» يسبب لهم إزعاجًا كبيرًا . .

آه . . ونزلنا إلى الحديقة . . ومررنا بجوار السور من الداخل . . وتناولت مسدسًا . . واجهته . . لم أهاجمه من الخلف . . وقلت إننى أحاكمك . . أنت خائن . . والقتل جزاء الخيانة والغدر . . أخذ يقهقه . . كان يظن أننى أمزح . . صرخت فيه كمجنونة . . اثبت مكانك . . مكانك . . الجريمة الكبرى هى الكذب . . كذبت حينما

زعمت أنك مسلم . . فلم تصل ركعة واحدة . . وكذبت حين قلت إنك تكره الحرب . . أنت لم تكن سوى حيوان . . وأنا بالنسبة لك كالكأس التى أدمنتها ولا يمكنك الاستغناء عنها . . قف . . لا تتحرك . . لقد شحب وجهه . وركع على ركبتيه . . رأيت فى عينيه الدموع . . تصورت أنه كات يبكى . . لشد ما تلذذت ببكائه . . ما الذى أتى بك إلى بلادنا . . أغمض عينيه وقال متوسلاً :

- «أنا أحبك يا نجمة . . لم أحب أحدًا مثلما أحببتك . . أعدك بشرفى ألا أعود لمثلها ولو طردونى من الجيش . . أنت كل شىء فى حياتى» . . ضحكت وضغطت على الزناد وأنا أقول :

وأنا أحبك . . وقتلى لك يطهرك من قاذورات وخطايا كثيرة . . خذ . . خذ . . خذ . . خمس طلقات بعدد التعساء الذين راحوا ضحيته . .

وانهمرت دموعها :

- «ماذا يقول أهل قومول عنى لو عرفوا ما حدث» .

ثم جرت إلى الخارج . . وعادت فى يدها كأس .

- «معذرة . . الملعون عودنى على شرب الخمر . . ولسوف نتزوج يا حبيبى . . لكن كيف؟» .

ورمت الكأس ، ثم أخذت تقول وهى تقهقه فى عصبية :

- «أحد أصدقائه ألمح لى بالزواج . . أحد أصدقائه المخلصين . . تصور . . الضباط هنا قلوبهم من أحجار . . » .

وقضينا أيامًا تعسة ، كان رئيس الاستخبارات فى «أورومجى» يسوق الأبرياء المشبوهين إلى المعتقل ، وكل يوم كان يعدم واحدًا أو اثنين بحثًا عن القاتل ، ومن آن لآخر كانوا يأتون إلى نجمة الليل ويعرضون عليها بعض الثوار أو المشتبه فيهم فتنكر أن أحدهم هو القاتل ، وزادت عمليات القمع والسجن واشتدت حالة الطوارئ لا فى أورومجى وحدها بل فى كافة المدن الكبرى ، كما ازداد نشاط الثوار .

وذهبت إلى نجمة الليل ذات مساء ، وقلت لها :

- «ها قد انتهت فترة الحداد . . وأرى أن تقيمى حفلاً كبيراً وتدعين فيه نخبة من الكبار . . بهذه الطريقة نلقى ستارًا على الحادث القديم وينتهى هو وقصته . . ورأيى أن تحرصى على أن تعلنى خطبتك على ذلك الصينى الذى يريدك . . » .

قالت فى غيظ :

- «لقد قتلته لأنى أريدك . . » .

- «وأنا أريد هذا الحفل إن كنت تحبيننى حقيقة . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «وأمسكت بذراعها البضة، وجذبتها نحوى بشدة، ثم ضممتها إلى صدرى قائلاً:

- «حبيبتى . . يجب أن ننتقم للأبرياء».

- «كيف . . » . .

- «لدى شحنة ضخمة من المتفجرات أرسلها الثوار . . وعندما يكتمل الحفل . . سنحيل القصر إلى جحيم . . » .

هزت رأسها:

- «ونحن؟!» .

- «سنتركهم غارقين فى الخمر والرقص والغناء . . فإذا ما ابتعدنا عن القصر دوى الانفجار» .

- «وإلى أين تذهب . . » .

- «إلى الجبال . . هناك عثمان باتور والرجال الشجعان . . » .

أشرق وجهها بالفرح، وأخذت تقبلنى من كل مكان وأخذت أغمغم:

- «الطباخة العجوز يجب أن تبعث بها بعيدًا قبل الحادث . . وسائق العربة ذلك المنغولى التعس يجب أن نجد له مخرجًا . . والصبيان الصغيران اللذان يخدمان سنبعث بهما إلى الحديقة ليعدا غرفة خاصة طالما لهوت بها أنت وهو . . » .

وفى الليلة الموعودة، كان الليل دامسًا، وركبنا جوادًا قويًا، وانطلقنا فى عتمة الليل القارس ونظرنا خلفنا فإذا القصر كتلة من النيران المشتعلة، وإذا المكان من حوله يضىء وإذا الصراخ وصفارات الإنذار تتوالى . . وبعد ساعة كنا على مشارف الجبل . .

قلت وأنا أنزلها من فوق الجواد:

- «الجبل يا نجمة الليل سيظل مملكة الأحرار . . . المناضلين . . » .

قالت وهى ترتجف من البرد:

- «لشد ما أنا سعيدة . . » .

ضحكت قائلاً:

- «يجب أن تبحثى لك عن ثياب خشنة . . » .

وسألتنى نجمة الليلة فجأة:

- «لكن لماذا فكرت فى هذه العملية الجريئة فى هذا الوقت بالذات؟؟» .

قلت وأنا أسحب الجواد إلى منعطف ضيق آمن:

- «ليست هذه هى المرة الأولى . . طوال إقامتى فى أورومجى

كنت أقوم بعمليات مشابهة . . كنت أتحرك بأوامر عثمان باتور . . » .

نظرت إلى ساهمة وعيناها محملقتان . .

وقلت وأنا أجلس لأستريح :

- «ولو لم تفعلى ما فعلت فى زوجك وفى حادث الليلة . . لكان مصيرك كمصير هؤلاء الذين يحترقون بنيران غدرهم وظلمهم . . » .

صرخت قائلة :

- «ماذا؟؟ أكنت تقتلنى» .

تذكرت قصة الضابط وخاتون ، وهتفت :

- «أنا أبوها» .

لم تفهم نجمة الليل شيئًا ، وانصرفنا إلى أحاديث أخرى من السفر الطويل ولقاء عثمان باتور . . قائد الثورة فى الجبال .



الفصل [١١]

أحست بقدر غير قليل من الراحة وأنا أقطع مغاور الجبال وعلى القمم يقترب الإنسان من السماء، وتصفو الآفاق، وتزيد برودة الجو، أشعر أن صدرى تتفتح شعبه أكثر وأكثر أشعر بأنى طائر تنقصه الأجنحة، ونجمة الليل تمضى إلى جوارى أو خلفى على ظهر الجواد لقد لفحت الشمس وجهها الشاحب، فبدا أكثر سمرة واحمرارًا، ها هى تعود إلى صورتها الماضية فى قصر الأمير، إنها سعيدة مرحة ولكنى فى شىء من القسوة أحست فى الأيام الأولى ببعض الضيق لعدم مقدرتها فى أخذ حمام ساخن كالنظام التركى، وشعرت بغير قليل من الاشمئزاز حينما لم تجد أدوات الزينة إلى جوارها، وربما آلمها ألا تجد الهامات التى كانت تنحنى لها صباح مساء من علية القوم، فالناس فى الجبال على الفطرة، والنسوة يشاركن الرجال فى كل شىء يتعلق بالعمل، كانت البيئة الجديدة التى حولها لا شك متحمسة للتجربة، ولا تخفى سعادتها، ومن آن لآخر تكرر القصة.. كيف قتلته.. نظرات الرعب فى عينيه..

التوسل . . الرجاء . . والكلمات المستعطفة التى تنسكب من بين شفتيه .

كنت أدرك أنها فخورة أيما فخر بما فعلت . . وبعد رحلة شاقة بلغنا جبال «آلتاى» .

هنا مقر الجنرال عثمان باتور البطل الذى دوخ الأعداء والذى استطاع أن يمسك ببعض الخونة من أبناء البلاد المشيعين للعدو ، وكان عثمان باتور صارم النظرات ، طويل الشارب ، كث اللحية ، كبير الأنف لحد ما ، وكان هادئ الحركة ، وسيمًا ، قليل الكلام ، عميق التفكير . . إننى أعرفه جيدًا . . وأعرف الكثيرين من الرجال الذين يناضلون إلى جواره . . وكان يلبس الملابس الثقيلة أو السميكة إتقاء البرد القارس فى الجبال ، ما أعجب هؤلاء الرجال ، كانوا يصمدون لعواصف الطبيعة ومكائد الأعداء ، ويجابهون الموت ز المكاره بشجاعة منقطعة النظير طوال سنوات ، وكان شعارهم الذين بهز الجبال «الله أكبر . . الله أكبر» وكان بالجبال عديد من مراكز الثوار . فكنت أقضى مع هذا المركز أو ذلك فترة من الوقت ، وأحكى لهم تفاصيل المذابح والاضطهاد التى يرتكبها الأعداء فى حق المواطنين وأشترك فى بعض الهجمات أو العمليات الخاطفة ، وكان هدفى فى النهاية أن أكون قريبًا من عثمان باتور . . حيث مجموعتى الأصلية التى أنتمى إليها ، وأعمل معها ، وسألتقى هناك مع مصطفى درغا .

وأخيراً نفق منا الجواد، ولجأنا إلى قرية صغيرة فى الجبال يسكنها بعض المزارعين والرعاة، كان الجو قد بدأ يميل إلى الدفء قليلاً، وبقينا فى هذه القرية بضع ليال :

قالت نجمة الليل :

- «إلى متى المسير؟» .

- «لن نكف عن المسير ذاهبين أو عائدين» .

- «هذا مرهق» .

- «تلك هى الحرب» .

- «لا أعنى ذلك» .

- «ماذا تريدين؟؟» .

- «آن أن نتزوج . . إنك دائمًا لا تغتنم الفرص . . أتذكر آخر لقاء لنا فى قصر الأمير . . ليتك فعلت . .» .

أمسكت بيدها فى حنان، فأخذت يدى ولصقتها بخدها، وبقينا هكذا وقتًا طويلاً، ونظرت بعينين تفيضان رقة وحنانًا :

- «إلى متى نبقى هكذا؟؟» .

- «لا شك أن بالقرية أحد العلماء» .

- «سأجرى أبحث عنه . .» .

- «دعى هذا الأمر لى . . » .

- «إننى فى قمة السعادة . . » .

- «نحن نغامر . . » .

- «ولم لا يا مصطفى . . » .

- «أترى سنعيش حتى ننجب أولادًا ويكبرون ونسعدهم؟» .

- «دع الأمر لله» .

كان زواجنا مختصرًا جميلاً ، شاركنا فيه أهل القرية ، فرقصت الفتيات ، وغنى لنا الرعاة أغانيهم الجميلة ، ودقت طبولهم الحلوة التى تهز القلوب ، وأكلنا وشربنا ، وقضينا عشرة أيام ممتعة كأنما اختلسناها من الزمن ، وباعت نجمة الليل ما تمتلك من مجوهرات ، واشترينا جوادين ، واستأنفنا المسير . .

- «هناك يا حبيبتى . . حيث الرجال الشجعان سنعيش . . إنهم مجتمع كامل بنسائه ورجاله وأطفاله . . الكل لا يعرف شيئًا سوى الحرب» . .

الحرب هنا معناها الحياة والحرية . . الحرب فريضة فى سبيل الله . . وعندما ننتصر ونصبح السادة فى بلادنا سنبدأ حياة أجمل وأروع . . » .

ابتسمت ونظرت إلى الآفاق التى توشحها الغيوم وقالت :

- «أهناك أجمل وأروع من هذه الحياة التى نحياها الآن؟؟» .

- «نعم يا حبيبتى . . عندما يحل السلام، وترجع بلاد الإسلام للإسلام . . ويفر الأعداء . . عندئذ نستطيع أن ننعم بالحياة . . ونكون سعداء حقًا . . إننا يجب أن نعيش لمعنى كبير . . أكبر من الحب الذى بينى وبينك . . ستكون تركستان كلها أغنية حب خالدة . . وسنكون أنا وأنت وأمثالنا سر روعة الأغنية المقدسة . . وسر خلودها . . تلك هى الجنة على الأرض» .



الفصل [١٢]

كنا على الجبال، وقال عثمان باتور فى اجتماع حاشد بجبل آلتاى:

- أيها الرجال الصناديد:

«إن اليوم يوم عصيب ودقيق، ويتوقف عليه مستقبل بلادنا ربما لأجيال، وصراعنا على هذه الأرض طويل، منذ طمع فينا قياصرة الروس بتحريض من المتعصبين الأوروبيين أدعياء المسيحية، ومنذ امتد بصر الصينيين من عشرات السنين إلى بلادنا العظيمة.. أرض البطولات.. والأمجاد.. والمعارك الإسلامية الخالدة.. منذ أن اجتزأ كل عدو قطعة من أرضنا، فى غفلة من الأمراد والحكام اللاهين.. لا أريد أن أتحدث أيها الرجال عن الماضى كثيراً.. وإنما أردت أن أقول إن تحرير أرضنا لن يحققه لنا أحد، على أكتافنا وحدنا ينهض بناء الحرية.. كذب علينا الروس حينما عرضوا العون، وكذب علينا الصينيون حينما ذوقوا لنا الأمنيات الحلوة فى

الحرية والاستقلال . . وها أنتم ترون بلادكم تحكم بالحديد والنار، ويساق الآلاف إلى ساحات الإعدام، ويساق مئات الألوف إلى المعتقلات . . لقد أبيدت أسس تركستانية بأسرها . . وقادتنا العظام قادة التحرير لم يعاملوا كأسرى حرب عندما وقعوا فى أيدى العدو وإنما قتلوا أشنع قتله، ولوثت سمعتهم وشرفهم، وهم خير من أنجبت أرضنا الطيبة، وهم الآن يحاولون خلق جيل مخدوع ضائع من أبنائنا فى المقاطعات والقرى والمدن، ويزعمون أنهم يريدون نشر العلم والتقدم فى بلادنا .

أيها الأبطال إننا نحارب من أجل تحرير أراضينا . . ونكره العدوان فى أى صورة من صوره، وندافع عن ديننا الإسلامى الحنيف، وتراثنا الحضارى العريق . .

إن حربنا اليوم جهاد فى سبيل الله . . وعلينا أن نضرب ضربتنا حتى نقصم ظهر العدو وعندما نتحرر فسنكون أصدقاء للجميع، فبلادنا لا تعادى أحدًا، ولا نطمع فى أحد . . أرضنا الغنية بالخيرات والأمجاد يجب أن تكون لنا، ألسنا شعبًا جديرًا بالحرية؟؟ لقد يئس العدو من القضاء على حرب العصابات التى قمنا بها، فقاموا بحملة فتك الأهالى وسلطوا على الشعب بغيهم وانتقامهم . . واليوم لا مناص من الحرب الشاملة الكبرى . . » .

ودوى الرجال بالهتاف والتكبير، وفى الأيام التالية أخذت الجموع تزحف زحفًا كبيرًا، كانت قوات العدو تتراجع في ذعر، وأصبحنا على بضعة أميال من «أورومجى»، فأخذت قوات الشعب تكيل الضربات لقوات العدو الباقية فى التركستان الشرقية، وتراجعت تلك إلى تركستان الغربية، وتكشف تقهقر العدو عن حقائق عجيبة، كانت مختفية تحت وطأة الاحتلال، فقد ظهر فعلاً من السجلات التى تركها العدو أثناء تقهقرهم أن هناك عائلات تركستانية بأكملها قد اختفت تمامًا، كما بلغ عدد المعتقلين فى معسكرات الاعتقال ثلاثمائة ألف، وقد روى المعتقلون الذين أفرج عنهم بعد الانسحاب قصصًا رهيبة عن التعذيب الوحشى الذى تعرضوا له فى معسكرات الاعتقال، وكانت الصور التى رسمها هؤلاء المفرج عنهم مما تقشعر لهوله الأبدان، ولم يعثر أهل الضحايا على جثث شهدائهم فقد كانوا يخفونها ويعملون على إبادتها بوسائل عجيبة، وقد عثر بالمصادفة على جثتين فى أحد المناجم المملوءة بالغازات الخانقة تبين فيما بعد أنهما للسيد خوجة نياز رئيس الجمهورية التركستانية والجنرال شريف خان أحد قواده، كما حدث نتيجة للأمطار الشديدة أن انهارت عمارة تشغلها إدارة الاستخبارات (ج . ب . أو) والتى كان يعتمد عليها العدو فى البطش بخصومهم، ووجد تحت أنقاض هذا المبنى هياكل بشرية بلغت ثلاثة آلاف هيكل مما يدل على أنه كان يوجد تحت البناء

المتهدم سجن لأفراد الشعب، وأنهم ماتوا فيه دون أن يهتم أحد بأن يفتح لهم الأبواب أو يسأل عن مصيره، وخرج أبناء الشعب التركستانى من كل الطوائف ليشهدوا هذه المأساة التى لا مثيل لها . .

قالت نجمة الليل والدموع تنهمر من عينيها :

- «كيف مات هؤلاء؟؟ إننى يا مصطفى لا أستطيع أن أستطرد فى خيالاتى، أليس هذا منتهى القسوة . . آه الحجرات المظلمة . . الاستغاثات التى لا يلبيها أحد . . الجوع . . الظمأ . . السياط الحارقة . . كان فيهم من يحلم بزوجه . . وأطفاله . . وبفتاة وهبها قلبه . يا إلهى أيمكن أن يحدث هذا فى العالم . . لعنة الله على الأعداء . . ماذا يريد منا هذا العدو . . كيف يرجى خير من وراء قوم فعلوا هذا الفعل البشع . . أنظر الهياكل المتعانقة . . إنهم ماتوا وهم يحتضنون بعضهم بعضاً . . وهناك هيا كل ماتت ميتة القرفصاء . . لا شك أن البرد كان شديداً . . كانوا يضرعون إلى الله وهم فى أتعس الأوضاع . . هؤلاء الذين عاشوا طلقاء فى الغابات والجبال فى بلادنا الجميلة يموتون على هذه الصورة الرهيبة . . اللعنة على الأقدار» .

أمسكت بيدها قائلاً :

- «عندما يموت الإنسان لا يشعر بشىء بعدها . . لا تعذبى نفسك . . » .

- «العـذاب لنا نحن . . ويـجب أن نتـألـم . . حـتى تتـولـد فى أعماقنا طاقة كراهية خالدة لكل الطغاة . . » .

- «عزيزى إننا نطاردهم فى كل مكان . . » .

-وجففت نجمة الليل دموعها وقالت :

- «مصطفى لن أستطيع الاستمرار فى السير معكم . . » .

- «لماذا؟؟» .

جففت دموعها وهمست :

- «يبدو أن بين أحشائى جنينًا» .

نظرت إلى الهـياكل المبعثرة تحت الشمس والمطر ، ونظرت إلى نجمة الليل ووجهها الشاحب المتألم ، وهمست فى أذنها :

- «إذا رزقنا الله بولد فسوف نسميه خوجة نياز» .

ابتسمت فى مرارة ، وأخذتها إلى البيت الذى سنقيم فيه وقلت :

- «سوف أحل بعد أسبوع ، إن مقاطعتى «إيلى» ، و«آلتاى» الغنيتين بالمعادن والثروات يجب أن ننزعهما من أيدى العدو . . » .

واستمرت المعارك القاسية ، والأعداء يولون الأدبار ، والتقى بنا عثمان باتور فى لقاء خاص ضم عددًا غير قليل من القادة ، وقال :

- «أيها الرجال . . هل علمتم بما فعله الحاكم الصينى لتركستان تركزت أبصارنا عليه، وقال بهدوئه المعهود:

- «إنه يقبض على حلفائه».

كانت مفاجأة مذهلة وصحنا فى صوت واحد:

- «كيف».

- «لعبة السياسة المصالح لعبة قذرة».

- «لكنهم حلفاؤه وهم الذين أنقذوه».

- «نعم أنقذوه ليملكوه، وليستغلوه ويستغلوا البلاد . . كان يملك ولا يحكم . »

وكان واضحًا أن الحاكم الصينى قد ضاق ذرعًا بحلفائه ولم يستطع أن يلفت من أسار مستشاريهم وخبرائهم إلا بعد رحيل العدد الأكبر منهم، وبعد أن استطاعت قوات عثمان باتور أن تبدد جحافلهم وتفر هاربة، فانتهز الفرصة، واعتقل الرعايا الحلفاء، وأرسل لزعيمه يعتذر ويتأسف ويطلب منه العون ضدنا. إن الحاكم لا مبدأ له . . وعلينا أن نستعد لجولة جديدة مع الصينيين بعد أن هزمنا حلفاءهم . . وأصدرت قيادتنا أمرًا عامًا بتكليف كل قادر على حمل السلاح بتقديم نفسه للاشتراك فى تطهير البلاد من الجرذان الصينيين ثم بعث «عثمان باتور» إنذار إلى الحاكم الصينى

وحدد له موعداً لمغادرة البلاد مع قواته، وإلا كان مصيرهم جميعاً الهلاك المحقق.

كان الحاكم حائراً لا يدرى ماذا يفعل، فقواتنا تحاصره من كل جانب والرسل التى أرسلها- ومنهم شقيقه- إلى عاصمتنهم لم يأت عنها خبر، والشعب يتدافع إلى الموت من أجل الخلاص فى ثورة عارمة تدعو إلى الفجر والإعجاب.. وهتاف «الله أكبر» يملأ الآفاق..

- «ها نحن نلتقى مرة ثالثة يا مصطفى حضرت».

ونظرت فإذا بصديق العمر منصور درغا..

- «آه يا منصور.. لشد ما تغيرت.. إنى أرى الشعرات البيضاء على رأسك.. بالأحضان يا منصور».

ولا حظت أن ذراعه اليسرى لا تتحرك، وأنه يحمل مدفعه بيده اليمنى، فاحتضنته فى حب بالغ».

وعدت أنظر إليه، لقد ذهب الكثير من نضرة وجهه، ورأسه بدت صلعاء إلا من شعرات قليلة، لكن لحيته بقيت رمادية توحى بالإصرار العنيد.. وفى عينيه حزن لا يريم..

- «ما هى أخبارك يا منصور؟؟».

- «انتصرنا..».

ضحكت، فلم يعد أحد يجهل هذه الحقيقة، وأدرك هو أن جوابه غير شاف.

- «وحبيبتى الغجرية ماتت. . ذبحوها كما تذبح الشاة فى وليمة فاخرة. . كانوا يتقاسمونها كالوحوش. . كانت تصرخ وتدافع. . الحيوانات المفترسة تعرف الرحمة. . أما هم. .».

وأكمل ويلوح بسبابته. . لا. . لا. . وانتشر خبر فرارى من المعتقل. . ليتنى ما هربت. . كان خير لى أن أكون أحد الهياكل التى عثروا عليها فى مبنى المخابرات المنهار. . تسألنى لماذا؟؟ لقد بحثوا عنى فى كل مكان. . ولأنهم فشلوا فى العثور على اختطفوا أسرتى كلها نساء ورجالاً وأطفالاً. . تسألنى الآن ما مصيرهم، فأقول بكل أسف. . ذهبوا. .

ودمعت عيناه:

- «ذهبوا إلى من لا يظلم أحدًا. .».

وجفف الدمع وتمتم:

- «أتعقد أننى أسعد حالاً من هؤلاء الذين ذهبوا؟؟».

أمسكت بيده وقلت:

- «هيا بنا. . فإن نجمة الليل كانت تريد أن تراك. .».

نظر إلىّ، وكأنه يتذكر قصة قديمة عفى عليه النسيان:

- «نجمة الليل؟؟».

- «نعم.. زوجتى».

- «زوجتك؟؟ مستحيل.. أنت تعرف..».

ضحكت فى ثقة وقلت:

- «لقد اشتركت معى فى عدة عمليات فدائية رائعة..».

وكان يجلس إلى جوارنا صحفى جريح عاد لتوه وقال:

- «أأنت مصطفى مراد حضرت؟؟».

- «نعم..».

وضحك الصحفى فى سعادة وقال:

- «هنا منشور فى أورومجى وفى آلتاى وكاشغر وقومول بخصوصكما..».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «مبلغ من الذهب لمن يقبض عليك أو على نجمة الليل سواء أكنتما أحياء أو أمواتًا.. إذًا هو أنت؟؟ إن قصتك مادة صحيفة رائعة..».

ونظرت إلى كتفى، وأشرت إلى الصحفى الذى هتف، مقهقهًا:

- «نجمة الشرف الأولى..».

- «نعم يا صديقى من عثمان باتور».

- «وحكم الحكم من الحاكم الصينى.. ما أعجب الدنيا!!».

كان القمر يرسل أشعته ألوانية، وإلى جوارى منصور درغا.

غمغم منصور:

- «مات أمير قومول، وأظنهم قتلوه.. وتبدد الأمراء أو تحولوا إلى نماذج للشفاء والتعاسة.. وانفرط نساؤهم فى كل الأنحاء.. الدنيا تموج وتفور بأحداث لا نهاية لها.. لكأنما كتب علينا أن نقضى العمر محاربين..».

- «ليس هناك أشرف من الجهاد فى سبيل الله يا منصور..».

- «أعرف.. لكنى أحيانًا أفيق إلى نفسى.. وأتذكر الأيام الجميلة والطفولة البريئة.. والأهل والغدير.. والأرض الخضراء والصباح الجميل.. والدنيا المرحة.. ولماذا ذهب كل هذا؟؟ هل لا بد أن يشقى الإنسان حتى يبلغ ينابيع السعادة؟؟ وأين هى السعادة يا مصطفى؟؟ ها نحن ننتصر.. لكن الأمر لكثرة الانتصارات

والهزائم أصبح أمرًا هينًا . . أحيانًا ينتابنى هذا الشعور . . اعذرنى . . فقد فجعت فى الإنسان كإنسان . . لماذا تموت زوجتى؟؟ ولماذا يموت العجوز أبى؟؟ وتراق دماء أمى وأختى وعشيرتى؟؟ قيل لى إنهم كانوا يتمتمون ببضع آيات من القرآن . . وكان أبى يعلو صوته بآية الكرسى . . كان الجلادون يضحكون . . لماذا يضحكون؟؟ مصطفى . . أريد أن ألتقى بنجمة الليل . . أريد أن أسألها كيف عاشت مع هؤلاء الوحوش؟؟ كيف آكلتهم وشاربتهم؟؟ أكانوا بشرًا» .

أدركت أن منصور درغا متألم لما أصابه وأصاب أهله، وأن نوبات الحزن التى تحل به من وقت لآخر تثير ثائرته، وتكاد تذهب بعقله .

فربت على كتفه فى مودة وهمست :

- «أتؤمن بالله؟؟» .

- «نعم . . » .

انهمرت دموعه، ثم أخذ يغمغم :

- «و ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾» [البقرة: ١٥٦] .

●●●

الفصل [١٣]

كور قبضته، وزم شفتيه، وصرخ فى جنون:

- «تسحقنى الإرادة اليائسة».

هذا ما قاله حاكم تركستان الأكبر، واستطرد فى سخط:

- «كان على أن أعتمد على حلفائنا أو على مساعدة الصين لكى أحمى سلطانى من ثورة الشعب التركستانى.. ما وقفت قط وحدى واستطعت أن أنجز أى انتصار.. ما معنى ذلك؟؟ معناه أن أبقى طول حياتى متكئًا على ذراع حليفه؟؟ لذلك لم أشعر قط بالراحة أو التنسم بريح السعادة..».

رد أحد الجنرالات الصينيين الكبار قائلاً:

- «لم نفكر قط فى أن نتخذ شعب التركستان الشرقية صديقًا».

زمجر الحاكم وقال:

- «هذا مستحيل، الغازى والمهزوم لا يمكن أن يكونا

صـديقين. . كل مـرة كنت أحـاول أن أسكـت المقـاومـة بالعنف والقسوة، لم يكن هناك طريق آخر. . لست ساذجًا، إننى أفعل ما أعتقد أنه لا صواب غيره. . انظر. . الجبال حولنا تمطرنا بالرصاص والرجال، بعـد انهيار العون من حلفائنا. . وإذا لم يف «زعيمنا» بوعده فستسقط أورومجى، وسنذبح هنا فى أشهر مذبحة عرفتها أرض تركستان. . ».

وعاد «الحاكم» إلى استراحته الخاصة، كان ثائرًا منفعلاً وجلس وحده يفكر، ولا يدرى أطال به الوقت أم قصر، لكنه عندما رفع رأسه وجد فتاته تقف وفى يدها زجاجة وكأسان، وتمتم فى دهشة:

- «منذ متى وأنت واقفة هكذا».

- «حوالى نصف ساعة».

- «يا إلهى!! ولماذا لم تتكلمى. . لشد ما يعذبنى صمتك».

كانت فتاة تركستانية مرغمة على أن تعيش مع الحاكم على الرغم منها، كانت تحمى بذلك نفسها وأسرتها، ليس هى الفتاة الأولى، ولكنها هنا منذ شهور، إن «الرئيس» لم يملها بعد، هى صامتة دائمًا، وكان المفروض أن يطردها، لكن صمتها كان يحلو له، كل النساء ثرثارات أما هذه فلا تكاد تفتح فيها إلا لتجيب على سؤال فى أقل كلمات ممكنة، وقال لها:

- «إذا رحلنا من هنا فهل ستبقين أم ستأتين معى؟؟» .

- «إننى طوع أمرك يا سيدى» .

يبدو أنها لم تفهم ما يرمى إليه . .

- «حسنًا . . قد يهزمنا التركستانيون عندئذ . . » .

ولم يكمل حديثه ، لكنها نظرت إليه ، وقالت بسذاجة :

- «عندئذ ستنجو بنفسك يا سيدى ، ولن تفكر فى امرأة مثلى» .

- «لماذا؟؟» .

- «النساء كثيرات على طول الطريق . . وأنا من أكون؟» .

هز رأسه وقال :

- «ستبقين هنا إذن» .

أجابت بكل هدوء :

- «نعم ، حتى يأتى أهلى ويأخذوننى» .

أطاح بالزجاجة والكأسين بضربة واحدة وصرخ :

- «كلكم تعيشون معى بلا قلوب» .

- «إننى لا أفهم ما تتكلم عنه؟! أترانى قصرت فى واجبى» .

- «أنا لا أتكلم عن الواجب يا حمقاء» .

- «عم تتكلم إذن يا سيدى؟» .

- «عن الحب . . » .

نظرت فى بلاهة ولم تتكلم . . «الحياة كلها يسودها الخوف والناس هنا يتحركون بدافع الخوف أو المصلحة ، حتى الجنود الصينيون فى المعركة ، عندما يشعرون أن حياتهم فى خطر ، يركعون على الأرض ويهتفون مستغيثين ، ويطلبون الشفاعة من التركستانيين ، وبعضهم يهرب بحياته للإسلام . . ويعتنق دين الأعداء التركستانيين ، والحلفاء يعاونوننى ويرسلون جيوشهم بثمن . . إما أن يسيطروا على السلطة أو يستولوا على المواد الخام ، أو يكسبوا أنصارًا لهم ، وأنا نفسى لم يتقدموا لمساعدتى إلا بعد أن أعلنت ولائى لهم . . » .

والتفت مرة ثانية إلى الفتاة :

- «اذهبى إلى الجحيم» .

- «أخرج من القصر؟؟» .

- «ألا تعرفين الجحيم . . » .

- «الجحيم . . الجحيم . . لا أعرف مكانه بالضبط . . ولكن أستطيع أن أسأل . . » .

قهقهه فى سخرية وهتف :

- «انصرفى يا حمقاء . . » .

وعندما همت بالانصراف ، وعادت إليه تقول :

- «تذكرت يا سيدى . . الجحيم هنا . . فى الآخرة حيث يأوى الأشرار والكفرة وأعداء الله» .

- «اذهبى إلى هناك» .

- «لكنى لم أمت بعد . . » .

وراح فى ثياب عميق ، كان غطيطه يدل على أنه لم ينم منذ ليلتين ، وبقيت الفتاة واقفة ، ثم أفاق على ضجة ونظر فإذا بها واقفة :

- «من أية داهية أتيت» .

- «جئت من أقصى الشمال . . من أطراف سيبرى . . هل نسيت يا سيدى كنت أقدم لك الكئوس والفواكه فى أحد زياراتك . . أعجبت بى وبقية القصة أنت تعرفها . . إذا رحلت أنت من هنا ، فسأذهب إلى الشمال ، وأبحث عن أبى وأمى» .

كانت جميلة فاتنة غير متعلمة ، جرها إلى المقعد ، وأجلسها على ركبتيه ، وأخذ يربت على شعرها فى تدله ، ويلامس أنفها

الدقيق، وشفتيها الدسمتين، وعينيها الواسعتين، ثم يقبلها وكأنه فى حلم وردى، وتمتم:

- «الحاكم لم يصلح لشىء.. لقد ذهب الشباب والحب بعد أن زال السلطان والنفوذ.. لقد نسيت اسمك ولم أعد أذكر إلا خيالات باهتة يحتضنها الماضى الذى تختلط فيها الابتسامات بالدموع.. الحرب دائمًا.. لا شىء غير الحرب..».

دقات دقات على الباب، وتنحنى الفتاة وتخرج، ويدخل الضابط أركان حرب:

- «سيدى النجدة لم تصل.. والتركستانيون المسلمون يحاصرون أورومجى.. والمعارك الدامية تدور خارج المدينة.. لم نحرز أى تقدم..».

- «ادفعوا بالمزيد من الرجال..».

- «ألا تفكر فى الانسحاب..».

- «الانسحاب حماقة، إذا فكرنا وانسحبنا أتدرى ماذا تكون النتيجة؟؟».

- «ماذا؟؟».

- «سيختطفنا المسلمون من كل جانب.. سينقضون علينا من

كل صوب.. وسنخسر المعركة كلية بكل تأكيد.. وسنموت جميعًا.. أورومجى محصنة، وتستطيع أن تصمد لفترة طويلة.. ليس هناك من وسيلة سوى الصمود حتى الموت.. أو حتى تأتى النجدة.. اخرج وأبلغ القيادة ذلك..».

تلعثم الضابط وقال:

- «إن الإنذار الذى أرسله عثمان باتور يؤكد سلامتنا إذا رحلنا..».

وضحك وقال:

- «أنا لا أثق فى وعود المحاربين».

- «لماذا؟ إنهم لا يكذبون يا سيدى».

قهقه وقال:

- «إننا خدعناهم ألف مرة».

- «لكنهم..».

قاطعه الحاكم قائلاً:

- «انصرف.. المقاومة حتى النهاية.. لا انسحاب ولا تسليم..».

وانصرف الضابط، وبقى الحاكم وحده يعانى من ضيق

ووساوس لا حد لها، عندما يقترب القائد من حافة اليأس لا يصح أن يستسلم بل يجب أن ينتحر، وأفضل وسيلة للانتحار أن يقذف بنفسه فى أتون المعركة.. هذا ما أفكر فيه.. لقد أرسلت أخى إلى عاصمة الصين.. ولن يعود أخى خاوى الوفاض.. إن الزعيم لن يترك التركستان الشرقية تفلت من أيدينا، معنى ذلك أن يبتلعها حلفاؤنا، النجدة لا بد آتية...».

وبينما هو منهمك فى أفكاره إذ عادت الفتاة الصامتة مرة ثانية تحمل إليه بعض الطعام وزجاجة أخرى من الخمر، وبعد أن وضعت الطعام أمامه قالت:

- «سيدى.. أريد أن أرحل».

نظر إليها فى دهشة وقال:

- «لماذا؟؟».

- «إننى هنا خائفة.. والحرب تقترب».

قهقه وقال:

- «أتخافين الموت؟؟».

- «نعم..».

- «وما قيمة أن تموتى أو تعيشى؟؟».

- «لا أريد أن أموت . . » .

- «ألا يكفى أن تكونى إلى جوارى؟» .

- «أنت سيد كبير ، وأنا مجرد جارية أو خادمة . . » .

نظر إليها فى غيظ ، كان يحبها ويلذ له وجهها وصمتها وسذاجتها ، لقد ضاق ذرعًا بأنواع كثيرة من النساء ، لقد جرب المتعلمات ، وجرب «الفنانات» ، وعاشر وجرب الصينيات المهاجرات إلى أرضه الجديدة . . مل الجميع ، لكن هذه البلهاء لم يزل لها فى قلبه منزلة أسيرة لماذا؟؟ لا يدرى . . للقلب أحكامه الخاصة . . ونظر إليها نظرة أخرى بعد أن خف غيظه وقال :

- «ماذا تتمنين فى الحياة؟» .

- «أنا أعود إلى أهلى . . حيث المراعى و . . » .

قاطعها قائلاً :

- «ألا تريدين البقاء معى؟؟ سأغمرك بالذهب والطعام والملابس والحماية . . » .

أخذت تبكى وتنتحب ، فصرخ فيها محتدًا :

- «لسوف أشوى جلدك بالسياط أيتها المتمردة . » .

جففت عينيها فى ذعر ، وقالت :

- «ما فكرت فى أن أسىء إليك».

- «وسأسوق أهلك إلى سجن أسود يخرجون منه . . ».

فانكبت على قدميه باكية وقالت :

- «الرحمة . . إننى أعتذر عنا بدر منى خطأ . . ».

- «أذهبى . . ».

فخرجت ترتجف كطائر بلله المطر فى ليلة باردة ليلاء.



الفصل [١٤]

وأخيرًا أرسل «الزعيم» النجدة المكونة من ست فرق انتحارية مجهزة بأحدث أسلحة، وعندما حاولت الفرق الست عبور حدود تركستان تصدت لها قوات الحدود، فأرادت القوات الصينية أن تخدعها، وتقدم قائد الفرق الصينية من القائد التركستانى وقال:

- «إننا لم نجئ إلا لتأديب «الحاكم» الذى انحاز وتشيع مع حلفائه، ولا نريد سوى تطهير بلادكم منهم..».

قال القائد التركستانى ساخرًا:

- «فلتطهروا بلادكم أولاً».

- «إنها عملية واحدة.. ونحن أصدقاء».

- «تأكد يا سيدى أننا قادرون على تطهير أرضنا منهم ومن قائدكم الخائن أيضًا.. نحن نعرفه جيدًا.. إننا نعتصم بالإسلام وهو خير درع ضد أى غزو».

قال القائد الصينى :

- «إن وقوفكم فى وجه قواتى يعطى الأعداء فرصة أكبر . . » .

- «أنتم أيضًا أعداء . . » .

- «لسوف يفتك بكم الحاكم» .

- «إنه محاصر فى أورومجى ولن يستطيع الهروب . . » .

- «حسنًا . . لسوف نعود من حيث أتينا ، ولنترك لكم هذا الخطر الداهم كى تعالجوه بأنفسكم . . » .

ولم تمر أيام قليلة حتى ظهرت الخدعة ، وتقدمت الفرق الصينية الانتحارية على حين غرة ، وداهمت حرس الحدود ، وكان عددهم قليلاً جدًا بالقياس إلى عدد القوات الصينية الزاحفة ، إنها معركة غير متكافئة ، جعلت الصينيين يعبرون الحدود ، وعانت هذه الفرق ما عانت من مقاومة الأهالى ، وفقدت الكثيرين من القتلى واستطاعت بعد جهاد مرير أن تقترب من «أورومجى» حيث يقيم الحاكم الصينى كالسجين ، إذ كانت تحاصره قوات عثمان باتور النظامية . . عندئذ أعلن الحاكم الصينى تخليه عن حلفائه تمامًا ، فأتت جموع صينية جديدة تزحف كالنمل ، لتواجه عثمان باتور وقواته .

قال عثمان باتور :

- «أيها الرجال . . أنا لم أيأس بعد . . » .

- «لا قبل لنا أيها الجنرال بهذه الحشود الصينية التى لا أول لها ولا آخر . . » .

ابتسم عثمان باتور فى ثقة :

- «إلى القلب الحنون . . إلى الجبل» .

- «كيف؟؟» .

- «من هناك سنبدأ من جديد يا مصطفى حضرت» .

- «سيدى . . » .

- أعرف ما تقول ، تريد أن تستمر المعركة حول أورومجى . . فى الإمكان أن نصمد حتى الموت . . وهذا شىء عظيم . . الأعظم منه أن نبقى أحياء ونطهر أرض الإسلام منهم . . أعلن فى الرجال العودة إلى الجبال . . » .

وعدنا إلى الجبال نحمل جراحنا وقتلانا وأحزاننا ، لم يستبد بنا اليأس ، كنا فرحين لأننا أذقنا العدو الأمرين ، وكبدناه الكثيرين من الضحايا ، لقد دفع الثمن غاليًا ، ونحن لم تنكسر شوكتنا ، أو تخمد عزائمنا ، وأشرق الجبل من جديد بوجوه الرجال الصابرين الصامدين ، وعادت صفوف الصلاة والتكبيرات تهوم فى الآفاق العالمية وأخذت المناورات تستأنف «الحاكم» الذى استنجد به ، وعين مكانه صينيًا آخر حاكمًا عامًا على التركستان الشرقية وابتسم عثمان باتور وقال :

- «من لا يملك يجود على من لا يستحق . . كأن بلادنا مزرعة خاصة لهم . . » .

كان الحاكم الجديد شرسًا عصبيًا ، وأراد أن يثبت أنه جدير بمنصبه الجديد لقد اتخذ خطه قمع قاسية خبيثة ، وكان أبشع ما فى هذه الخطة هو أنه أصدر أمرًا بالقبض على الطبقة المثقفة فى تركستان وخاصة الكتاب والشعراء والعلماء حتى أولئك الذين لم يحملوا السلاح من قبل ، وأقام مذبحة رهيبة ترددت أنباؤها القظيعة فى كل أنحاء البلاد .

ويومها ساد الجبل وجوم حزين ، وقال منصور درغا :

- «المجرم يحاول قتل روح الأمة» .

قلت فى أسى : «حملة الفكر يذبحون كما تذبح الشاة . . » .

- «نعم . . الدين والفكر الأصيل هما وجدان الشعب . . الطاغية الخبيث ضرب ضربة فى الصميم . . » .

وقال منصور وهو يبكى :

- «أعرف شاعرًا طالما تغنى بالانتصار وآمال الغد . . » .

- «وأعرف عالمًا فذًا أفاض على الشباب إبان المعمعة بتحليلات ودراسات إسلامية مذهلة . . » .

- «حتى فتية المدارس الصغار الذين كانوا ينشدون الأشعار فى المظاهرات ساقوهم إلى ساحة الموت . . » .

وجاءت نجمة الليل تحمل على كتفيها طفلاً صغيراً لا يكف عن الصياح وهى تهدهده في رقة وقالت :

- «لماذا بقى هؤلاء المثقفون هناك . . المثقف الذى لا يحمل السلاح ويأتى إلى الجبل لاستئناف المعركة ليس مثقفًا حقيقيًا . . » .

قلت فى أسى :

- «إن هؤلاء المثقفون لهم عذرهم . . وشعبنا فى كل مكان فى حاجة إليهم وإلى كلماتهم إنهم يؤدون الدور نفسه الذى يؤديه حملة السلاح على سفوح الجبال ، بل ربما يكون دورهم أخطر ، ولهذا ترين يا عزيزتى أن العدو الصينى ساقهم إلى الموت قبل غيرهم . . لأنه يعرف خطرهم . . » .

وبدأت حرب العصابات من جديد ، وبدا للصينيين أن المعركة لم تنته بعد ، وفى كل ساعة ينحدر الرجال من الجبال ليقوموا بعمليتهم الانتحارية ، ويختطفوا الغزاة ، يدمروا منشآتهم ، ويبددوا الأمن الذى ظنوه حقيقة واقعة ، وتحول النصر الصينى إلى آلام وتضحيات وعذابات مستمرة . . .

وفى الوقت نفسه اندلعت ثورة شعبية أخرى فى مقاطعة «إيلى» يتزعمها وطنى مخلص، وهو عالم إسلامى كبير اسمه الشيخ «على خان»، الذى استطاع بعد معارك عنيفة مع الصينيين أن يستولى على المقاطعة ويحررها، وأصبح الشيخ على خان رئيسًا لجمهورية تركستان الشرقية الإسلامية، وكان الجنرال عثمان باتور قد انضم إليه هو ورجاله، وبفضل خبرة هذا القائد الهمام عثمان تم الاستيلاء على مقاطعتى «التاى» و «تشوشك» وتكبد العدو الصينى خسائر فادحة فى الأموال والأرواح، وأصدر رئيس الجمهورية الشيخ على خان أمرًا بتعيين الجنرال عثمان باتور واليًا على مقاطعة التاى. .

ولم يكن الشيخ على يستطيع تحقيق هذا النصر إلا بعون كاف من السلاح الذى جاءه دون إملاء أية شروط سوى تطهير التركستان الشرقية من الغزو الصينى. . لم يكن من اليسير أن يستسلم الصينيون بين يوم وليلة، بل ظلوا يقاومون فى استماتة، وكثر عدد الجيش الإسلامى التركستانى، وانتعشت آمال الأمة بعد كفاح وعناء شديدين. .

لكن منصور درغا قال:

- «ها نحن ننتصر، لكنى خائف. . ».

قلت فى ثقة:

- «لا معنى للخوف، وقد جربنا أن النصر تصنعه سواعدنا. . ».

قال منصور درغا ساخراً :

- «وما قيمة سواعدنا بدون سلاح . . » .

أدركت أنه يعنى معونة السلاح الذى جاء للشيخ على خان ، إن منصــور يشك ، ويخـاف على بلدنا الصـغيـر أن يعـود إلى اللعبـة المحزنة . . لعبة الكرة التى تتداولها أقدام الأقوياء .

- «إن العالم يتغير يا منصور . . » .

هز كتفيه قائلاً :

- «بل إن المنتصرين امتلأوا غروراً وغطرسة» .

- «سوف يتحول احتلال البلاد إلى شىء آخر . . » .

- «ماذا تعنى يا مصطفى؟» .

- «أعنى الصـداقة هى بديل الاحتـلال ، ولا مانع من أن نكون أصدقاء للذين ساعدونا» .

نظر منصور إلى طفلى الصغير وقال :

- «إننى أنظر إلى طفلك الصــغـيــر . أتعلم أننى حـزين من أجله» .

- «لماذا؟» .

- «أنت تظن أننا وحدنا مارسنا حياة الأخطار والأهوال.. لكنى أؤكد أن ابنك وجيله سيكون أتعس منا..».

قالت نجمة الليل وهى تلف ولدها فى حب، وتضمه إلى صدرها فى خوف:

- «لا تقل هذا الكلام عن ولدى».

وضحكت، وضحك منصور، لكنه عاد يقول:

- «الصينيون المنهزمون طلبوا الصلح..».

- «لقد رفضناه..».

استدار نحوى وقال:

- «هل تعلم أن الدولة التى تمدنا بالسلاح ضغطت على رئيس الجمهورية كى يقبل الصلح والمفاوضات؟؟».

قلت فى حدة:

- «على أى أساس».

هز منصور كتفيه وقال:

- «على أساس استقلالنا الذاتى وانسحاب الصينيين، وأن نحل محلهم فى الوظائف».

- «ماذا تريد بعد ذلك؟؟».

- «أريد الاستقلال التام وأريد أن أقول إن رغبة تلك الدولة كانت أقوى من الرغبة الشعبية. . أردنا انسحابًا غير مشروط للصينيين وهزيمة كاملة لها. . وأرادت تلك شيئًا آخر. . المعنى لا يخفى عليك. .».

قالت نجمة الليل وهى تهدهد طفلها:

- «لقد عاد السلاح الذى طالما حلمنا به. . ونحن نعود إلى مدننا وبيوتنا وننعم ببعض الراحة. . إني أرى المستقبل رائعًا. .».

لوح منصور درغا بيده قائلاً:

- «النساء دائمًا يفترضن حسن النية. .».

ثم مال على أذنى هامسًا:

- «عثمان باتور كان رافضًا للمقترحات. . إن استقلالنا استقلال ذاتى».

قلت فى ضيق:

- «سيرحل الصينيون. . هذا هو المهم. .».

هز كتفيه مرة أخرى وقال:

- «من يدرى؟؟؟».

●●●

الفصل [١٥]

ساد لغط كبير فى أنحاء البلاد إبان الاستعدادات للاستفتاء الكبير وتقرير المصير ، وجدت خلافات جذرية بين السياسيين والمفكرين ، لكن ثقل الحلفاء أعطى التغييرات الداخلية اتجاهات خاصة ومؤتمرات معينة ، فقد طفا على السطح أولئك الرجال الذين يمتدحون موقف الحلفاء ومدهم لتركستان الشرقية بالسلاح ، كانت وحدة النضال تجمع قلوب الرجال على معنى واحد هو التحرير وعودة البلاد إلى حظيرة الإسلام والحرية ، ونتيجة للمفاوضات التى أجريت تقرر تعيين «جانجى» القائد العام لشمال غرب الصين حاكمًا عامًا لتركستان الشرقية ، يعاونه ثلاثة من التركستانيين هم أحمد خان ، وبرهان شهيدى «نائبًا الحاكم» وليومون شون سكرتيرًا للحاكم العام . . وكانت مهمة هؤلاء الأربعة هى العمل على إجراء الانتخابات التى نصت عليها المعاهدة . . وتهامس الناس . . إن الرجال الثلاثة من أعوان الحلفاء لقد باعوا أنفسهم للشيطان ، لكن الدعاية حاولت أن تبعد عنهم هذه الشبهات وحاولت تصويرهم

بصورة الأبطال القوميين الذين أدوارًا من أجل تحرير البلاد إبان محنتها، كما ساعدوا على مد الثوار بالسلاح مما جعل الثورة الشعبية تحقق أهدافها على صورة رائعة، ومع ذلك فقد أخذت البلاد تستعد للانتخابات؛ لأن رأى الشعب هو الرأى الحاسم ولن يستطيع أحد أن يخدع هؤلاء الثوار المحاربين الذين ظلوا سنوات طويلة يتصدون للعدو، ويحطمون من محاولاته المستمرة للقضاء على استقلال البلاد، وفى هذه الأثناء فوجئنا بالدولة الحليفة تحاول السيطرة على المقاطعات الثلاث «إيلى» و «التاى» و «تشوشك»، لكن الرئيس على خان وقف وأعلن على الملأ:

- «إننا لن نفرط فى ذرة من تراب الوطن، ولن نسمح بالتدخل فى الولايات الثلاث. . ونحن على استعداد لاستئناف القتال ضدهم إذا لم ينسحبوا».

وغرقت البلاد فى جو الدسائس والفتن.

تمتم الجنرال عثمان باتور:

- «المطامع لا تقف عند حد».

فرد الرئيس على خان قائلاً:

- «العالم مشغول عنا بتضميد جراح البشرية . . ».

- «انتهت حربنا ولم تنته . . ».

اقترب الرئيس على خان من عثمان باتور وقال :

- «يا جنرال . . عد إلى قواتك . . واستعد . . » .

أدركت ما يعتمل في الأفق السياسى من تحركات عربية ، فقلت لزوجتى :

- «نجمة الليل . . لقد حان الرحيل . . » .

- «إلى أورومجى . . » .

هتفت فى رعب :

- «لا أريد الذهاب إليها . . إن ذكرياتها تؤلمنى» .

- «إذن إلى قومول . . » .

- «وقومول هى الأخرى فيها افتراءات قديمة قد تجلب لى ولك المتاعب . . » .

- «أتوفقين على الذهاب إلى «كاشغر» . . » .

- «لا بأس . . » .

- «وهناك ستعيش مع الطفل . . ما أنا فذاهب إلى الجبال . . » .

الأيام المريرة تعود . . والصديق يريد الثمن . .

وكان الرئيس «على خان» يجلس فى قصر الرئاسة مع زوجه

وذويه، والليل خارج القصر ساكن هادئ، والناس في بيوتهم يسمرون، ويتحدثون عن الانتخابات المقبلة والعهد الجديد، وتدهم القصر فئة من الشبيبة حاملين السلاح، تعلن عيونهم، وملامحهم الغدر والخيانة:

- «ماذا تريدون؟؟».

- «قم معنا».

- «أنسيتم أنني الرئيس».

- «نحن نعرف، وليس أمامنا من وسيلة إطلاق الرصاص إذا لم ترافقنا..».

اختفى الشيخ «على خان» وأخذ الناس يتهامسون، لماذا لم يعد يظهر كالعهد به فى صلاة الجمعة، ولماذا لم يعد يلتق برفاق السلاح الذين قادهم بالأمس وأحرز معهم الانتصارات البارعة ضد الصينيين.. وكثر اللغط والجدل حول مصير الشيخ على، لكن بيانًا رسميًا يصدر عن الحكومة تعلن فيه أن الحاكم الرئيس على خان سافر للاستشفاء..

وفوجئ الناس بالاستخبارات من جديد.. لقد اندسوا فى الشوارع والمزارع والمصانع، وأخذوا يعتقلون المناوئين فى الولايات الثلاثة التي طمع فيها الصديق، وصدر قرار بتعيين أحمد خان

التركستانى المعروف رئيسًا على المقاطعات الثلاثة «إيلى وآتاى وتشوشك» . .

وعندما قدمت القوات لاحتلال آتاى ، برز الجنرال عثمان باتور برجاله وتصدى للقوات ، وبدأت الحرب . .

كان العدو أكثر عددًا وعدة ، ومن ثم لجأ الجنرال عثمان باتور إلى منطقة «غوجن» واعتصم بالجبال المنيعة هناك .

عقب المعركة جاء منصور درغا يعرج ، نظرت إليه وبكيت :

- «ماذا جرى؟؟» .

قال فى سخرية مرة :

- «فى كل معركة أفقد شيئًا عزيزًا على . . يومًا ما فقدت ذراعى ، ومرة أخرى فقدت زوجتى الحبيبة . . فى أيام السلام القصيرة تزوجت أرملة فى آلتاى . . ترى ما مصيرها الآن؟؟ وقد أصيبت ساقى اليمنى برصاصة ، مع أنى ما زلت أحمل السلاح الذى عاونونا به . . ما هذا العجب الذى نراه فى دنيانا الغريبة . . » .

وارتمى إلى جوارى يلهث ، وأخذ يعب الماء وكأنه لم يشرب منذ أسبوع ، ثم انحنى على ضمادة ساقة وأخذ يعيد إحكامها وينفى عنها الغبار والطين . .

ثم تطلع إلى الأفق الدامى عند غروب الشمس وقال:

كلما نظرت إلى الأصيل تذكرت الآخرة.. الأصيل يوحى إلى بالنهاية..

- «لم هذه الأحزان يا منصور؟؟».

- «تستطيع أن تطلق على من الآن فصاعداً المهزوم..».

ثم أخذ يغنى أغنية شعبية تركستانية قديمة:

الليل يا حبيبتى مرصع بالنجوم.

ينوح كالأسير فى غياهب الوجوم.

كوجه غانية.

سوداء قادمة.

من ساحل العبيد.

حليها رخيصة.. لكنها تضىء.

عيناى لم تزالا تهمسان بالنشيد.

بوجهك المضىء.

يا حبيبتى.

لكنما لقاؤنا محال.

فرحتي ترف في مجاهل التلال.

أبحث عن حريتي.. عن الصفاء والجلال.

قلت ممازحًا:

- «إن حبيبتك أرملة قد تخطت الأربعين، ولا شك أنها تغط فى نوم عميق الآن..».

التفت منصور إلىّ فى أسى وقال:

- «ألم أقل لك؟؟ هاقد فعلوها وفصلوا الولايات الثلاث، وهم الآن يعيشون فى باقى الولايات.. يبعثرون نفوذهم فى كاشغر وأورومجي، وقنصلياتهم تشترى الرجال، وتخطف الرجال، وتقتل الرجال، لقد اشتروا حتى الذهب والفضة فارتفعت الأسعار.. أتعلم ذلك؟؟ إنهم يفسدون الاقتصاد والسياسة والفكر والدين.. وذمم المواطنين أيضًا..».

كانت المنطقة التى لجأنا إليها حصينة حقًا، فلم يكن أحد بقادر على مداهمتنا فيها لوعورة مسالكها، وكل مجموعة دفعها العدو إلينا استطعنا أن نبيدها إبادة تامة، وأصبحت لنا اليد الطولى فى تنسيق العمليات الحربية، وتنظيم حرب العصابات، وكانت سلطات العدو تحاول جاهدة أن تصدر البيانات الكاذبة عنا، وتهون من شأننا، وتظهر عدم اكتراثها بمقاومتنا.. لكن الجنرال عثمان

باتور قاد عملية بارعة، وزحفنا حشوداً ضخمة صوب «آلتاى»، واستطعنا احتلالها وطردنا العدو وفر أذنابه والخونة، وفرض الجنرال باتور سيطرته على المقاطعة مرة ثانية. .

ويومها ابتسم منصور درغا وقال:

- «هذا حظ أرملتي الحسن. . أوشكت أن تترمل مرتين».

ودخلنا المدينة وجرت النسوة المحجبات يستقبلن الجنرال بالأغانى وخرج الرجال بالهتافات المدوية، والأطفال بالأناشيد الحماسية. . كلما حققنا شيئًا من النصر يظهر وجه بلادنا الحقيقى تغمره الفرحة، وتضىء المآذن وينطلق منها التكبير والتسبيح لله.

وأشعر أن آباءنا الأقدمين الفارابى والبيرونى والبخارى وابن سينا أشعر كأنهم يلبسون عمائمهم ويقفون على مشارف الطرق يحيون جهادنا، ويرحبون بمقدمنا. .

أشعر أن المجد القديم كله يبعث من جديد، فيمتلئ قلبى بالثقة، وتفيض روحى بالأمل. . .



الفصل [١٦]

تمتم منصور درغا قائلاً فى حزم:

- «نحن كالغريق.. يظل يقاوم بذراعيه قوى الموت، ويضرب ويضعف، ويدفع الأمواج فى وهن.. ثم يغوص، وهناك في المجاهل المظلمة فى أعماق البحر يودع الحياة فى صمت وحزن.. آه.. يا مصطفى حضرت.. نحن هكذا، أترى سيذكرنا أحد بعد الموت؟؟».

كان منصور درغا يتكلم، ويحاول أن يمثل دور الغريق وهو جالس إلى جوارى، ويسبح متوهمًا بحماس بالغ، ثم ألقى سؤاله الأخير وهو يلهث وكأنه يقاوم الأمواج حقيقة..

ووجدتنى أجيبه قائلاً:

- «وما قيمة أن يذكرنا أحد؟؟».

قال والجد يرتسم على وجهه:

- «لذلك قيمة كبرى».

- «ما هى؟؟».

- «إذا نسينا الناس فمعنى ذلك أن القضية الشريفة التى نناضل من أجلها قد ماتت..».

وأخذت أهز كتفى وأقول:

- «القضايا لا تموت بموت الرجال».

ضحك منصور فى سخرية وقال:

- «لا قضايا بدون رجال.. مات خوجة نياز، ومات الجنرال شريف خان ومات أمير قومول.. نحن لسنا أمراء ولا جنرالات.. لكن القضية حية.. انتظر لا تقاطعنى.. وماتت زوجتى الأولى.. وتزوجت أرملة غيرها.. القضية لم تزل حية.. لكن وا أسفاه، ما زلنا نقاوم الأمواج، أترى سنبلغ شاطئ الأمان، أو تأتى سفينة النجاة.. أم نلاقى الموت فى الأعماق السوداء الصامتة؟؟».

وكانت آلتاى فى أيدينا، و«عثمان باتور» يعد العدة، ويجند الجنود، والثوار يهرولون إلينا من مكان يحتله العدو أو يسيطر عليه الخونة، وأخذ ينضم إلينا التجار الذين يسخرون لشق الطرق أو بناء السكك الحديدية دون أجر سوى أن يأخذوا وجبة طعام، والعلماء الذين أذيقوا العذاب والسخرية ألوانًا..

وذات يوم، جاءوا بجنودهم . .

هذا ما كان يتوقعه عثمان باتور : . جاءوا هذه المرة بأعداد كبيرة، زحفوا على «آلتاى» كالسيل الجارف، ومعهم عدد وآلات، وكانت المعركة عنيفة دامية، خسروا كثيراً وخسرنا كثيراً، لكنهم استولوا ثانية على آلتاى، وعدنا مرة ثانية إلى الجبال وشعابها . . اتخذنا بأريكول قاعدة لانسحابنا، وكان عثمان باتور يقول :

- «النضال حتى الموت . . » .

ابتسم منصور درغا وكانت الدماء تنزف من رأسى وأخذ يضمد لى جراحى ويقول :

- «لكأننا نموت موتًا بطيئًا . . » .

قلت والدموع تبلل أهدابى :

- «ألا تؤمن بالبعث . . » .

طاف منصور بنظراته الساهمة عبر الآفاق البعيدة التى يوشحها السكون البارد وقال :

- «إننى أؤمن بالبعث . . لكننا نبعث فى الآخرة يا صديقى وقلوبنا صافية كالنبع الرقراق . . لن يبعث معنا حقدنا . . إننى أحقد على الأعداد أشد الحقد، وعندما يتوارى هذا الحقد، فلسوف أفقد لذة كبرى . . إننى أدعو الله أن أبعث حاقداً . . هؤلاء الشياطين ارتكبوا

من الموبقات ما لا يصدق . . آه يا مصطفى . . لقد أخذ بعض رجالنا أسرى أثناء إحدى المعارك . . أتذكر؟؟ ربطوهم فى عجلات الدبابات . . أتذكر؟؟ كانوا يتبارون بتصويب الرصاص إلى آذانهم وعيونهم . . أتذكر؟؟ وكانوا يسخرون ويقولون اشنقوا آخر ثائر بأمعاء آخر جندى . . لقد شنقوا بعض العلماء الثوار فعلاً بأمعاء أحد جنرالاتنا . . يمكن أن تسمى هؤلاء بشراً؟؟» .

كانت وطأه الهزيمة على أنفسنا قاسية ، وكان الأصدقاء قد تحالفوا مع الحاكم الصينى الجديدة ، على استئصال شأفتنا ، وأخذنا نتطلع يمنة ويسرة فلا نجد صديقًا ولا حليفًا ، قال عثمان باتور وهو ينظر إلى السماء ويشير بسبابته :

- «إنه معنا . . » .

وهتف الرجال المرهقين الذين ينزفون ويتألمون «الله أكبر» .

وقال منصور درغا ذات أصيل :

- «سوف نذهب إلى أعماق الجبال ، وقد نرجع إلى المدينة أو لا نرجع ، ما رأيك فى أن نقوم بجولة صغيرة ، أريد أن أطمئن على زوجتى . . وأنت ألا تريد رؤية ولدك وزوجتك؟؟» .

الحقيقة أننى كنت فى أشد الشوق إلى رؤية نجمة الليل وطفلى الذى كبر ، لكننا مطاردون . . ثوار . . وإذا سقطنا فى أيدى العدو فمعنى ذلك الموت لا محالة ، وهتف فى قلق :

- «المدينة تبدوا لنا وكأنها حقل من حقول الموت».

- «أتخاف الموت يا مصطفى؟؟ هيا بنا.. سوف نتخفى.. وسنرى الدنيا الجديدة التى شكلها المعتدون.. فى المدينة سنرى الرايات، والشعارات.. سنرى المدينة تنشد قصيدة رثاء ووداع.. المدن كالبشر يا مصطفى تحزن وتتألم، وتترنم بالشعر، وتلطم خدودها.. المدينة كائن حى.. كائن بشري.. صدقنى..».

ونخترق الطريق بلا هويات، أحيانًا نلبس زى الرعاة وأحيانًا نبدو متسولين نستجدى لقمة العيش، وفى بعض الأوقات نشترك مع عمال الشحن والبناء، أو نشترك فى مظاهرة صاخبة تهتف، أو نأخذ دورنا فى رجم أحد الثوار الخونة «الشرفاء»، لكننا لم نكن حريصين أن تسقط أحجارنا عليه، كنا فى وسط الضجيج نضرب الأحجار فى رؤوس الجنود سواء أكانوا أعداء أو تركستانيين خونة اختلط الحابل بالنابل، وسادت البلاد فوضى من نوع غريب، المصاحف وتفاسير القرآن، وكتب الحديث وخاصة كتاب الإمام البخارى جدنا العظيم وغيرها من كتب الفقه والتوحيد، كثير منها ممزق وملقي فى الشوارع، والجنود يشعلون فيه النار ليستدفئوا من شدة البرد..

وأخيراً بعد ليال شاقة مضنية وصلت إلى المنزل الذى تقيم فيه زوجة منصور درغا، كنا قبيل المغرب بقليل، ودخل منصور أولاً.. ووجدته يضحك بصوت عال كاد يستلقى على قفاه.

- «تعال وانظر يا مصطفى . . المرأة خلعت برقع الحياء» .

وسمعتها تقول بصوت يخالطه البكاء :

- «هل أتيت يا منصور؟؟ حسبتك فى عداد الأموات» .

- «ما هذا الذى تلبسين؟؟» .

قالت وهى تقترب منه :

- «لعنة الله على الشياطين! ! إنهم مزقوا قناعى فى الشارع . . وفعلوا ذلك مع كل امرأة تسير محجبة ، واختطفوا عباءتى وأشعلوا فيها النار . . بل أمسكوا بثوبى وأعملوا فيه المقص حتى يصير قصيرًا . . وتصير أكمامه أيضًا قصيرة . . إنهم يريدون لنا التقدم والحضارة» .

كان منظر الأرملة فى ثوبها القصير الأسود ، وأكمامها التى تقترب من إبطيها ، وشعرها المتهدل ، يعطى انطباعًا فى قلبى لا أنساه ، إنه مشهد يضحك ويحزن فى الوقت نفسه . .

وأمسك منصور بزوجته وقال :

- «هذا هى تركستان الجديدة» .

كانت المرأة تشعر بالخجل ، وتبكى فى حرارة ، لكن منصور ضمها إليه فى حنان ، وقال :

- «لا تحزنى يا حبيبتى. . لن نبقى هنا طويلاً، وسنذهب إلى حيث تلبس النساء ما تشاء. . وفى الجبل يا حبيبتى لا توجد مصاحف ممزقة، ولا يستطيع أحد أن يدوس صحيح البخارى. . ».

وتركت منصور درغا على أمل اللقاء به في الغد، كنت أشعر بشوق جارف نحو نجمة الليل والطفل الحبيب، الذى يستطيع الآن أن يجرى ويلعب ويناديني باسمى. . لكم أحب هذا الولد الجميل المرح. .

الليل فى المدينة يوحى بالخوف والخطر، والتجول ممنوع حتى الفجر، والمدينة امتلأت بوجوه كثيرة لم تكن فيها من قبل، نساء ورجالاً وأطفالاً، صدق ما سمعناه أن الأعداء يقومون بهجرة واسعة إلى تركستان، وفى الوقت نفسه يأخذون مئات الألوف من أبناء تركستان الأصليين، ويقذفون بهم إلى بعيد، ويستولون على المنشآت والمتاجر والمزارع، ويبنون للمهاجرين الجدد بيوتًا ومؤسسات، وأماكن للدعارة أيضًا. . قوافل الفتيات الصينيات ملأت البلاد باسم الحرية والتحرر، والكتب الصغيرة بمختلف اللغات تملأ المدارس والأندية والشوارع، إنها كتبت خصيصًا لبلادنا، وهى تتحدث عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وتذكر أبطالاً لم نسمع بهم قط، وتصور «عثمان باتور» و «خوجة نياز» «والرئيس على خان» بصورة اللصوص وقطاع الطرق، وتجعل من

«الحاكم الجديد» التترى المهاجر إلى بلادنا . . والذى أصبح مكان الرئيس على، والذى يتغنى بمجدهم، تجعل منه البطل القومى محرر الشعب، ورفيق التقدم، وأبا الأحرار . . هذه ليست المدينة التى أعرفها، لا الرجال رجالها، ولا اللهجات التى أسمعها فى الشوارع لهجاتها، ولا الأطفال أطفالها، وهؤلاء النساء العاريات الكاسيات لسن نساءها . .

وأخيراً ذهبت إلى الجهة التى كانت تعيش فيها زوجتى . . قلبى الحزين يدق فرحًا بلقاء الأم والطفل، عندما أنظر إلى وجه نجمة الليل أشعر براحة كبرى . . وطرقت الباب طرقات خفيفة . . وسمعت وقع خطوات ثقيلة . . وعندما فتح الباب كدت أصعق .

- «من أنت؟» .

نظر إلى بعينين كبيرتين محتقنتين، ووجه مكتنز شديد الحمرة، وخصلات من شعر رأسه يخالطه قليل من الشيب، وبقايا حساء تبدو قطراتها عالقة بشاربه الكث، وقال :

- «ألا تعرف من أنا؟؟ الكل يعرفنى . . أنا زعيم لعمال أذلين قبضوا على كبار الثوار» .

كان واضحًا أنه جاهل لا يعرف شيئًا عن التعليم، وعلى الرغم من أنه يتكلم بلغة البلاد إلا وجهه كان غريبًا، وسحنته كذلك، وهذه الغلظة التى فيه، ونظرة الكراهية التى تطل من عينيه . .

- «يبدو أنك أخطأت الطريق».

قالها ثم صفق الباب . .

آه . . والدار لو كلمتنا ذات أخبار . . واضح أنه احتلال من نوع صغير . . وداخلى رعب مبهم، أين ذهبت زوجتى وولدى؟

يجب أن أتصرف بروية وهدوء وألا قبض على، وعندما أساق إلى سجن أو معتقل فلن أخرج لعارمة التى تحرق قلبى إلا أنى اعتصمت بالصبر والهدوء . . وأخذت أتجول فى الحى القديم الذى بدا نصفه مهدمًا، فقراء المنطقة يعرفنى بعضهم ويعرفون ولدى وزوجتى، وهناك قريب عجوز كان يعمل خادمًا فى مسجد، والحلاق الذى يقع دكانه على ناصية الشارع أعرفه جيدًا . . إنه يحلق لولدى شعره الذهبى، ليته محتفظ بخصلة من شعره الحبيب . . لكن المسجد مغلق، ولا أكاد أرى أحدًا من المعارف . . وذهبت إلى الحلاق كان يحلق لأحد الرجال، نظر إلىّ من طرفه، والتقت عيناى بعينيه ولم يكترث لوجودى، وبدا أنه غير راغب فى محادثتى . . وفكرت . . ماذا أفعل . . حسنًا فلأجلس على هذا المقعد الخشبى العتيق، وليكن ما يكون، ولاحظت أن الحلاق يسرع فى عمله، وأخيرًا تقاضى أجره، وانصرف الزبون وأشار إلى . . فقدمت وجلست مكان الرجل الذى انصرف.

- «ماذا جرى يا عبد الحق؟؟» .

قال وهو يبدأ فى مزاولة عمله فى رأسى الكث :

- «ما الذى أتى بك إلى هنا . . إن رجال عثمان باتور إذا قبض عليهم يقتلون فوراً . . كيف دخلت المدينة؟؟ يجب أن ترحل بأسرع ما يمكن وإلا فقدت حياتك . . » .

وقلت فى سخرية :

- «ماذا جرى» .

- «لست أدرى ولكنى حلاق يريد أن يعيش . . » .

- «أين ذهبت نجمة الليل؟؟» .

- «هربت . . » .

والتفتت إليه فى دهشة :

- «أخذت الطفل وتسللت دون أن أعرف عنها شيئًا . . » .

دارت الأرض ، المقص يصدر أصواتًا سريعة تزيد من توتر أعصابى ، وأدرك عبد الحق ما أعانيه من أحزان وحنق جنونى .

- «تصرف بحكمة يا مصطفى . . نحن فى زمان تعس لا يعرف الرحمة . . ولا يعرف الله . . » .

قلت بصوت كالفحيح :

- «أين ذهبت زوجتى؟».

- «يرجح إنها اتخذت طريقها إلى قومول..».

- «ولماذا قومول بالذات..».

- «هذا إذا بلغت قومول سالمة.. الأسر تناثرت فى كل مكان.. البلاد امتدت إليها أيد أسطورية ضخمة تلهو بجماهير الناس وتخلصهم وتعتصرهم، وتبعثرهم يمينًا وشمالاً.. لا أدرى ماذا أقول، كيف أعبر.. خير لك أن ترحل عن هذه المقاطعة فقد سقطت نهائيًا فى أيدي العدو..».

- «مستحيل..».

ساد وجهه الشحوب وارتبك وقال:

- «لا ترفع صوتك يا مصطفى.. نحن شعب صغير يأتيه البلاء من كل مكان، ويحاصره الرعب من الجهات الأربع..».

قضيت فترة تحت يدى عبد الحق، وقبل أن أنصرف من دكانه، وضع على صدرى شارة العدو وهو يقول:

- «هذه الشارة ستوفر عليك الكثير من المتاعب».

انتزعتها من فوق صدرى، ثم قذفت بها وسط الشعر المتناثر المقصوص وبصقت عليها وسحقتها بحذائى، وانصرفت..

أين أذهب؟؟ أنا في وطنى كـالغـريب، أرض ليـست لى، أصدقائى يهربون، وزوجتى غرقت فى خضم الأحداث الكبار، فلأعد إلى منصور درغا لأقضى عنده الليلة . .

عندما دخلت بيت منصور، وجدته يجلس في ناحية وزوجته فى مقابلته والطعام بينهما لم تلمسه يد . .

ودهشا لمجيئى المباغت، ونظر إلى منصور فى حزن فقلت له :

- «لم أجد أحدًا . . » .

هز رأسه وقال :

- «لقد رحلت هى وطفلها إذن؟؟» .

- «نعم، ولا يدرى أحد إلى أين . . » .

قال منصور وقد اختنق وجهه وارتجف شاربه :

- «هذا أفضل . . » .

لم أفهم ماذا يعنى، لكنه قال والحسرة تنقطع قلبه :

- «ألا تدرى؟؟ لقد أفلتت زوجتى من الضياع والموت لكنها دفعت الثمن . . » .

- «أى ثمن؟» .

- «كانت تستضيف الأعداء . . هل فهمت؟؟ لقد حضروا . . رأيتهم يدخلون البيت سكارى . . هل فهمت؟؟

أنا اختبأت كالفأر المذعور فى أحد الأركان حتى لا يقتلنى أحدهم، وهى . . هى . . زوجتى أخذت تمازحهم وتقبلهم . . من أجلى . . هكذا قالت . . . تكلمى أيتها المومس الفاضلة» .

قالت وهى تشنج عاليًا :

- «أردت أن أموت، لكنى جبنت . . اغتصبونى عنوة . . لم أكن أعرف لى مكانًا آوى إليه . . لماذا لا تأخذنى إليك يا ربى . . ارحمنى يا منصور . . إنهم فعلوا الشيء نفسه ببنات العلماء والكبراء وزوجاتهم . . إننى لا أتصور أننى أرى الحقيقة . . يخيل إلىّ دائمًا أننى أحلم . . » .

وقال منصور درغا والدموع تبلل أهدابه، ولكنه كان يحاول أن يمزح مزاحًا مرعبًا :

«حسنًا . . سوف نقضى ليلتنا هنا لضيوف شرفاء . . لديك أيتها المومس الفاضلة . . وغدًا نرحل . . أنت طالق . . وأنت . . ماذا أقول؟؟ على من يقع اللوم؟؟» .

وتطلع إلى الأرض والسماء وإلىّ . . ثم أخذ يقهقه كمجنون . . .

الفصل [١٧]

غمغم منصور درغا ونحن في الطريق العام:

- «فكرت في أن أضع حدًا لحياتي، لكني رأيت الانتحار جبنًا وهروبًا، وهو ينافي مع ما تعلمناه من قواعد ديننا الحنيف.. لقد آلمني يا مصطفى أن أفقد المعركة.. وشرفي في وقت واحد، تصاغرت أمام نفسي.. خيل إليّ أنني مسئول مسئولية مباشرة عن كل ما حدث.. أنا وحدي المسئول.. هكذا يبدو لي..».

كان منصور في حالة من البؤس يرثى لها وكنت مقدرًا لما يرزح تحته من أعباء نفسية قاسية، إن كل شيء أمامه ينهار.. الثورة.. الرجال الشرفاء، المآذن والقباب، القيم الإسلامية التي عاش في ظلها.. امرأته تتحول إلى مومس على الرغم منها، ومع أن آلامي وأحزاني كانت لا تقل عنه بشاعة إلا أنني قلت:

- «إنك تحمل نفسك فوق ما تطيق.. من أنت حتى تكون مسئولاً عن كل ما جرى في هذه الأيام العصيبة؟؟ من أنت حتى

تتـصـدى للأعـداء . . أنت فـرد ضـعـيف يا منصـور ، وقـد أديت واجبك . . » .

تأوه وعيناه تحملقان فى الطريق الواسع الطويل وقال :

- «واجب : ها ها . . الواجب فى أعناقنا حتى نموت . . ما دمت حياً فلابد أن تفعل شيئًا ، ويوم أن تشعر أنك يئست وأنه لا جدوى من أى عمل تعمله فقد خنت الأمانة . . » .

أدركت أن ماسأة زوجته تؤثر فيه أيما تأثير فقلت :

- «النساء كثيرات . . » .

ضحك فى هستيرية وقال :

- «وطننا قد انتهك شرفه . . لا أدرى كيف نعيش ونأكل وننام وننجب الأطفال . . » .

ووجـدنا من بعيـد حـشـداً هائلاً من الناس فى أيديهم المعـاول والفؤوس ، ورجال الشرطة يروحون ويجيئون ، وسألنا أحد المارة قائلين :

- «ما هذا؟؟» .

- «الأعداء يريدون أن يستولوا على المسجد ويحيلوه إلى مخزن لبعض المواد الخام . . وشيخ المسجد يقف بالباب معترضًا . . .

أخذوه، ثم ربطوه فى شجرة مقابلة للمسجد وهم الآن يسخرون منه ويبصقون عليه ويضربوه بأفرع الأشجار . الدماء تسيل من جسده . . ».

وتوقفنا عن المسير، قال منصور :

- «لماذا توقفت؟؟» .

- «يجب أن ننطلق إلى طريق آخر . . » .

ضحك منصور ضحكة مخيفة وقال :

- «معى سلاحى وذخيرتى، ولن تستطيع قوة أن تمنعنى من المضى فى طريقى إلى الإمام» .

كان يخفى غدارته، وكمية من الطلقات تحت معطفه الرث، وقبل أن انتبه لما سيفعله، وجدته يجرى، ثم يقصد المسجد من الخلف ويختفى، أخذت أتابعه كى ألحق به لكنى لم أجده، وبينما كان الشبيبة يضربون شيخ المسجد ويقهقون ويسخرون انطلقت بضع رصاصات وقع ثلاثة من الشبيبة على أثرها على الأرض ينزفون إلى جوار الشيخ المربوط صاح الشيخ المظلوم :

- «الله أكبر . . هذا هو انتقام الله . . »

واتجه الناس بأبصارهم إلى أعلى المسجد، كان منصور درغا يقف

بين القبة وقاعدة المئذنة فوق سطح المسجد، ولم أكن أرى سوى رأسه ومدفعه، وسمعته يصيح بأعلى صوته:

- «أيهـــا الكلاب . . هذا بيت الله، ولن تطأه أقـــدامكم النجسة . . ».

غاص قلبى فى داخلى، ودهمنى خوف شديد، إن منصور يقف الآن بين يدى الموت، ويعرض نفسه لكارثة محققة، ولم أدر ماذا أفعل، وتوالت طلقاته فأصيب عدد كبير من الشبيبة بالجراح، وتنبه رجال الشرطة، ونفر من الحزب . . وصاحوا:

- «خائن . . خائن . . رجعى . . رجعى».

وانصب الرصاص صوب القبة والمئذنة، وساد صمت وانفض خلق كثير ممن كانوا يقفون متفرجين وبعد دقائق ظهرت رأس منصور درغا ثانية، وأخذ يصيح:

- «لن تدخلوا المسجد إلا على جثتى . . هذا بيت الله أيها الأوغاد . . ».

وعاد تبادل الرصاص من جديد، وسقط عدد آخر من المهاجمين وأخذ بعضهم يقذف بالقنابل اليدوية . . إن منصور ميت لا محالة، وبعد فترة ستأتى النجدة، إنه يخوض معركة يائسة، ترى لماذا فعل ذلك؟؟

إن عشرات المساجد قد استولى عليها الأعداء، وتصديه لهم فى هذا المكان لن يغير من الواقع المرير شيئًا، ورأيت فى عيون الناس فى الشارع سعادة تترقرق فى أعينهم، إنهم فخورون بالرجل الذى يقف خلف القبة مدافعًا عن بيت الله، وفى دقائق امتلأ المكان مرة أخرى، وأخذ المشاهدون يرشقون الأعداء بالأحجار والحصى واللعنات، واندلعت فى المكان ثورة صغيرة من أجل بيت الله . .

فلم يجد الأعداء مناصًا من الانسحاب، ووقف منصور لدى مقصورة صغيرة فى المئذنة وأخذ ينادى بأعلى صوته :

- «الله أكبر . . الله أكبر . . الصلاة جامعة . . الصلاة جامعة» .

فرأيت الدموع فى عيون التعساء المظلومين، ورأيت إمام المسجد يتحرر من الشجرة التى ربط فيها، ويرتدى ملابسه، ثم يقصد الماء ليتوضأ، ونزل منصور إلى جوار المنبر وقال :

- «أيها الناس . . لعلها صلاة الوداع . . ومع ذلك فلا تتخلوا عن بيت من بيوت الله . . دافعوا عن كل شبر . . كل حجر فيه . . إنه يمثل المعنى الكبير . . المعنى الإلهى الذى عشنا فى ظل عقيدته مئات السنين . . فلنصلى ركعتين لله . . » .

كان بعض المسلمين قد استولى على قطع من الأسلحة التى وقعت من أيدى القتلى أو المصابين أو الهاربين، ووجدتنى أتناول

مدفعًا رشاشًا وكمية من الذخيرة. . ومن بعيد رأيتهم قادمين فى سيارات الجيش ذات العلامات المميزة. . وانصبت النيران على المسجد ومن فيه، وجرت معركة غير متكافئة بين الثوار وبينهم.

وقلت لنفسى:

- «إن «عثمان باتور». . ينتظر. . هناك فى «باريكول» ورأيت أن أنسحب، وبحثت عن منصور درغا. . لكنى وجدته ملقيًا على باب المسجد والسلاح فى يمينه، ويده قد تدلت إلى جواره غارقة فى بركة من الدماء. . واقتربت منه. . وإلى جواره عدد غير قليل ممن أصابتهم الرصاصات القاتلة. . كان إمام المسجد الآخر لقى حتفه ولحيته البيضاء مصبوغة بالدماء. . وأسرعت بالرحيل. . ».

كان رحمه الله يؤمن بأن الواجب باق فى عنقه حتى الموت. . وقد استشهد على عتبة المسجد، ضرب الخونة فى وضح النهار فى عقر تمركزهم، وتحرك الناس من حوله، لقد مات سعيدًا دون شك. . كان الطريق إلى قومول مغلقًا بالأخطار، وكان الناس يتحدثون عن حادثة المسجد، وعن غدر العدو، وعن الانتخابات التى حاولوا تزييفها فأتت بالرغم من تزييفهم فى صالح الشعب فعمدوا إلى الخديعة والاغتيالات وراح الأحرار فى السجون، كل شىء يعرفه الشعب، والأكاذيب التى تنطلق فى الصحف معروفة جيدًا، والترهات والزيف يسود صفحات الصحف اليومية لا يخفى

على أحد، وحفلات التكريم التى يقيمها العدو، والخطباء المفوهون والشعارات التى تلصق على الجدران، كلها تعبر عن وجه الزيف والاحتلال المكشوف والقنع الذى اشترك فيه الأعداء..

أصبحت الولايات الثلاث «أيلى وآلتاى وتشوشك» تحت سيطرة الأعداء، أما باقى الولايات السبع التى يحكمها أحد الخونة، فقد أعلن هذا الخائن -انضمام تركستان الشرقية للصين، عندئذ تملك الذعر الأهالى، وباتوا كأنما فى كل بيت مأتم، وأخذوا يستشرقون مستقبلاً أشد حلكة وسوادًا محفوفًا بمزيد من الأخطار والمكاره..

وبدخول القوات الصينية مرة أخرى، أدرك الناس أن ذلك سوف يتيح فرصة أخرى للتنكيل والمظالم فما زالت الذكريات المزعجة تطوف بأذهانهم؟؟.

وقرر الثوار أن تستمر المقاومة بقيادة عثمان باتور، وأن تتوجه فئة أخرى للخارج بقيادة الزعيم «محمد أمين بغرا» نائب الحاكم العام السابق لإبلاغ العالم اعتداء الصين على التركستان، وطلب المساعدة، وخرج الوفد، ووصلوا إلى مدينة «لاداخ» التابعة لكشمير، وبصحبتهم عدد قليل يقل عن ربع العدد الأصلى أما الثلاثة أرباع فقد لقوا الله شهداء فى الاشتباكات الدامية على الحدود مع الجيش الصينى، وبسبب الجوع والبرد الشديد والاختناق،

وبعض الأحياء تجمدت أطرافهم، إذا استغرق سيرهم شهرين كاملين، بين الطريق الثلجية القاسية، والممرات الجبلية الوعرة، وكان عليهم عبور خمسة أنهار، عبروها مائتى مرة لعدم استقامة الطريق، والتواء المجارى، وتسلق قمم الجبال الشاهقة، حيث يقل الأكسوجين، مما جعل الدم يسيل من أنوفهم، ومن خياشيم الدواب، وأخيراً وصل عدد قليل منهم إلى مدينة «سريناجر» عاصمة كشمير . . كانت هذه الرحلة صورة مجسمة للغناء الذى لا مثيل له . . الغناء الذى لقيه شعبنا المسلم فى سبيل الحفاظ على دينه وحريته واستقلاله . .

أما أنا فلم أستطع الاهتداء فى قومول على نجمة الليل أو الطفل . . وبدت لى لى قومول كالأرض الخراب التى تنضح بالمرارة والأحزان والعذاب . . كان الناس فى كر وفر، وأغلب الأسر يهربون إلى الجبال أو الحدود بحثًا عن مكان آمن لا يلحقهم فيه العدو.

واتخذت طريقى إلى «باريكول» حيث يعسكر عثمان باتور وعشرون ألفًا من رجاله الثوار بين الجبال المنيعة، هأنذ أعود وحدى بعد أن تركت منصور درغا نائمًا نومته الأبدية على عتبة المسجد، ليروى ثراها بدمائه الذكية، فى أعنف معنى لمعانى الرفض الجبار الذى يواجه الجموع والسلاح والمبادئ المدمرة التى تملك أنواع الدمار والفساد . . .

ولأول مرة بعد الرحلة الشاقة المضنية عبر بلادى الحبيبة أشعر بشيء من الاطمئنان . . إن أحضان الجبل توحى بالسكينة والرضا، وهنا أتنسم الهواء النظيف، وأهتف من أعماق قلبى بالتسبيح والدعاء لله، ونتدرب على الأسلحة الجديدة التى استولينا عليها. تلك الأسلحة المتطورة التى جاءتنا، لكنها على الأغلب أسلحة يدوية لا تتفق وما يحمله العدو من معدات الموت من طائرات ودبابات وغيرها . .

لكم كان يحلو لى أن أرى نجمة الليل . . وأرى ولدى الذى كبر ونما، وأتحدث معه وأناغيه وأعلمه الرماية، آه يا قلبى!! حسبتك تشبه جلاميد الصخر، ولا ترتجف لذكرى الأحباب، ولا تحن لأيام الحب واللقاء الأسرى للشذى العامر بكل المعانى الحلوة . . لكنك يا قلبى لحم ودم . . ما ذنبى وما ذنبك؟ إننى أشرد ببصرى إلى الآفاق الممتدة إلى بعيد . . وأتخيل ملايين البشر فى الحقول والغابات والمراع والمصانع والجيوش . . وأتأمل بخيالى وجوههم باحثًا عن ولدى الوحيد . . أين أنت يا ولدى؟؟ وتتساقط الدموع من عينى، ويخفق قلبى خفقة اللوعة والشوق فى ظل السنوات الطوال التى ينوء تحتها جسدى المنهوك . . وكلما رأيت طفلاً قبلته بنظراتى اللهفى، وأخذت أتابعه حتى يختفى، وكثيراً ما أجرى خلفه، وأقدم له بعض الفواكه الطازجة . . وأساله عن فتى صغير اسمه نياز

مصطفى مراد حضرت، وعن أمه نجمة الليل . . آه يا قلبى . . لشد ما تعذبنى بأوهامك وذكرياتك وأشواقك الملتهبة التى لا يطفئها برد الجبال، ولم يكن عثمان باتور رجلاً ساذجًا غير مدرك لوقائع الأمور، ومجريات الأحداث، كان قائدًا محنكًا، كان يعلم أن العشرين ألف جندى الذين يعتصمون معه بالجبال لا يستطيعون وحدهم أن يتصدوا لملايين الأعداء، لكن ثقته الكبرى كانت تتركز حول عدة معانى أهمها أن تبقى الثورة حية ومستمرة فى جهادها الأسمى، وأن الشعب الذى يعيش خلف أسوار الكبت والقهر والمظالم يتلقف الأنباء عن ثورته الدائمة، بالتالى فسوف يشعل الثورة هو الآخر، ويجعل من بقاء المستعمرين جحيمًا لا يطاق، واستمرار الجهاد سيحرك العالم لنصرة قضايا الشعوب المظلومة . . وفوق هذا وذاك فإن الاستسلام للهزيمة أمر لم يرد على ذهن عثمان باتور ورجاله، كان يقول دائمًا فى كل مناسبة :

- «هذا قدرنا . . وقد كتب علينا إلا نضع السلاح ما دمنا أحياء . . وخير لنا أن نلقى الله من أن نرضخ لحكم الأعداء «والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» وقد توجس المستعمرين شرًا من الثوار، فأرسلوا وفدًا من عملائهم إلى «باريكول» تدعو الوطنيين إلى الكف عن القيام بالهجوم صد الحكومة الشعبية، كما تدعوهم للحضور إلى «أورومجى» عاصمة البلاد لعرض مطالبهم على المسئولين .

قال عثمان باتور :

- «إن ذهاب القادة إلى أورومجى يحمل فى طياته خطراً كبيراً . . حسنًا . . نحن لا نأمن مكر الأعداء . . اذهبوا إليهم فى أورومجى وأعلنوا مطالبنا . . ألا وهى ضمان الحريات . . حرية الرأى والعبادة . . والكف عن الاعتقالات . . والكف عن مصادرة الممتلكات الفردية . . إن مصير الأمة ما تقرره بنفسها دون تدخل من أحد . . » .

لم يكن «الجنزال عثمان باتور» يجهل ألاعيب الأعداء ومخططاتهم ولهذا كنا نستعد ليل نهار للمعركة الفاصلة ، ولم يعد الوفد الذى ذهب إلى أورومجى بأية نتيجة ، وكنت إلى جوار الجنرال فى مسيرة قصيرة لتفقد مواقع الجبل ، وسمعته يغمغم :

- «على الأندلس السلام . . » .

- «إنها مشيئة الله . . » .

- «أفكر كثيراً ، لماذا لا يعيش البشر فى سلام . . » .

وضحك ضحكة حزينة وقال :

- «أرض الصين شاسعة . . والبشر هناك كالنمل . . لماذا يطمعون فى ثروتنا وأرضنا؟؟ هل نسوا ما عانوه على أيدى الطغاة . . الإنسان لا يتعظ . . » .

وساد فترة صمت قال بعدها :

– «تعلمت من بين سطور القرآن أن أعيش حرًا أو أموت مكافحًا عن شرف العقيدة . . » .

ودق الأرض بقدمه وهتف :

– «الحياة قصيرة . . ما أروع حياة الأبد . . ولهذا كانت إرادة الله أن تكون الآخرة هى دار المقام والخلود . . أعجب إذ تتصارع الدول والأفراد فى سبيل متعة تافهة محدودة بآجال قصيرة ، ولذا ترى الموت فى سبيل الله حياة . . » .

وتطلع حواليه ، وهو يمسح على لحيته وشارب الطويل وقال :

– «آمنت بالله . . العالم اليوم لا يعبد الله . . العالم يسجد للقوة والرعب . . هذا عالم العبيد ، سواء الذين هزموا فى برلين أو الذين انتصروا فى لندن وباريس وأمريكا . . » .

●●●

الفصل [١٨]

كل شيء من حولنا يتبدل ويتغير بسرعة، الناس والأشياء والأسلحة والمواقف، وخريطة العالم، كثير من أولادنا ذابوا فى خضم الهزيمة، أخذوا يلوون ألسنتهم بكلمات جديدة، وشعارات رنانة، والبنات -يا إلهى - خرجن إلى الشوارع سافرات، تيار كاسح من المغالطات والفضائح والانحرافات يجرف كل شيء أمامه باسم التقدم، ألا يمكن أن يتقدم الناس ويتحضروا دون أن تتحيفهم المظالم، أو تسحق حرياتهم، أو يساقوا سوقًا كما تساق العبيد؟؟ ألكى يتعلموا لابد أن يكفروا، لماذا لا يمشى التقدم معانقًا العدالة والحرية؟؟ ولماذا لا يسير العالم يدًا فى يد مع الإيمان بخالق الكائنات، ولماذا لا تحدث نهضة دون أن تعرى النساء أجسادهن ودون أن يكثر عدد البغايا والغانيات؟ لماذا لا تتصادق الشعوب دون أن يحاول شعب إفناء شعب آخر أو تبديده واكتساحه بالهجرة من ألوان وأجناس أخرى؟ إن ما أراه فى تلك الأيام يبدو لى وكأنه من صنع الشياطين. . وكنت أردد من آن لآخر لأصدقائى المحاربين أن

الطهر والنقاء الثورى كلها تتألق على سفوح الجبال وكنت أنظر إلى عثمان باتور الجنرال المؤمن، فيخيل إلىّ أنه بقية السلف الصالح.

إن هذا الرجل تتجمع فيه المعانى العريقة لجيل ينقرض، لحضارة طويلة فاضت بالخير والنبل والصفاء.. وأنا وراء هذا الرجل حتى الموت، ودارت المعاوك حامية الوطيس بين رجالنا والقوات الصينية المسلحة بأحدث الأسلحة، وانتصرنا فى سلسلة من المعارك لكن هل كان انتصارنا سهلاً؟؟ لا.. فإن مدد العدو لا ينفذ وكان رجالنا دائمًا يتناقصون، كما ننتصر بالتضحية التى لا مثيل لها، ويغمغم الجنرال عثمان باتور:

- «رجالنا يتقدمون، ويندفعون إلى الموت».

- «سيدى الجنرال.. إنهم يعرفون ما يجب عمله..».

- «الملحمة التى يُسطّرونها يا مصطفى حضرت بدمائهم ملحمة خالدة.. لكنى علمت اليوم من طلائعنا المتقدمة أن العدو يجهز ليوم رهيب..».

ولم تمر إلا أيام قليلة وفوجئنا بالحشد الصينى الذى توقعه عثمان باتور، وظلت المعركة محتدة الأوار ثلاثة أشهر كاملة، وقررنا الانسحاب نحو ولاية «شينهاى» الصينية لجمع الشمل وجعلها مركزًا للهجوم على القوات المعادية، لكن الطريق إلى «شينهاى» لم يكن معبرًا سهلاً، فقد كان الموت يترصدنا فى كل جانب، الحقد الكافر

يتربص بنا الدوائر والأعداء يحيطون بنا من كل جانب. . وتزحف علينا أكثر من عشرة آلاف جندى صينى من مدينة «آن سى شا» الصينية إحدى مدن قانصو، وقد سيطر علينا شعور بالتفانى، وكأننا باندفاعنا وصراعنا الدامى مع العدو نريد الموت، أو نهرب إليه من المصير المحتوم، وتمكنا أخيراً من الوصول إلى مدينة «ماخاى» التابعة لولاية «شينهاى». . كنا نريد أن نستريح بعض الوقت ونلتقط أنفاسنا. . كنت أنا شخصيًا أحاول البحث عن نجمة الليل وولدى. . كانت أمنيتى أن أراها قبل أن أموت. . قد يرى البعض أنها أمنية تافهة فى مثل الأوقات العصيبة، وقد يرمينى البعض بالأنانية لأننى أفكر فى زوجتى وولدى على هذه الصورة والوطن برمته متعرض للضياع والفناء. . أنا لا أكترث لما يقوله البعض، فقد تعلمت الصدق مع نفسى. . وأنا بشر تعرف الدموع طريقها إلى عينيه، ويعرف الخفقان سبيله إلى قلبى.

المطاردة لم تخفت حدتها. . هناك آلاف يزحفون نحونا من مدينة «دون خان» إحدى مدمن ولاية «قانصو». . وهناك آلاف آخرون يزحفون صوبنا من مدينة «شر خلق» التركستانية المتاخمة لحدود الصين. .

وقال الجنرال عثمان باتور:

- «الليل يزحف على «ماخاى» أيها الأصدقاء. . يا من فضلتم الموت على الحياة. . الذئاب تسد مسالك الطريق يا شهداء

العدوان . . وأرى الرايات قد لونت الأفق . . فى كل يوم يسوق الجزارون خرافًا للذبح . . هم لا يفرقون بين الخراف والبشر . . الطريق الطويل الذى قطعناه أيهاالرفاق من ماريكول أو من الجب إلى هنا . . ترصفه عظام الأحرار، وترويه دماؤهم الزكية . . يا طول الرحلة المرهقة!! وكثير من النساء والأطفال يفرون فى كل اتجاه يبحثون عنا . . عن ذويهم . . وإذاعة أورومجى أيها الأصدقاء تردد الأناشيد الحماسية للأعداء، وتسمم الآفاق . . وأبناء شعبى المسجونون فى الشوارع والبيوت ومصانع السخرة والمساقون إلى الحدود والمنافى وساحات الإعدام يتمتعون بأصوات خافتة، يجارون إلى الله، ويرددون ترانيم الموت . . هؤلاء الشهداء الأحياء أتعس مصيراً من الذين يموتون فى المعركة . . أيها الأصدقاء سندخل المعركة . . ومن بقى منكم حيًا فليحمل قصة جهادنا وعذابنا الطويل للأم المسلمة النائمة فى الجنوب وفى المشرق والمغرب العربى . . وفى أندونيسيا والهند وباكتسان . . وقولوا لهم إن الأندلس الثانية قد سقطت فى قبضة عدو الله والإنسان . . من يدرى لعل المسلمين يتيقظون فى يوم من الأيام يجمعون شتاتهم، وتكون لهم معركة كبرى ينتصرون فيها لله . . قولوا للمسلمين فى أطراف الأرض لا تصدقوا صحف العدو، ولا تثقوا فى تاريخه وفلسفته ودعوته».

وتطلع عثمان باتور إلى السماء . . واتجه صوب القبلة، ودعانا للصلاة . .

وفى اليوم التالى اندفعت جموع الأعداء صوبنا من كل حدب . .

واحتدمت المعركة . . واندمجنا فى المعركة الأخيرة بكل ما نملك من إحساس وقوة وإيمان وانتهى كل شىء . .

سقط الجنرال عثمان باتور فى يد الأعداء . . وشهدته من فوق شُرف عال يسير مرفوع الرأس، كل الأعداء يجذبون أكمامه، وغطاء رأسه ومعطفه، ويداعبونه مداعبات الموت، لكنه كان صامدًا يتطلع إليهم فى أنفة، أو يركلهم فى ازدراء . .

وتفرق المحاربون -أو البقية الباقية منهم- فى كل اتجاه . . ثم كانت وجهة كل واحد منهم صوب الحدود أملاً فى الوصول إلى كشمير . . وسيق الجنرال عثمان باتور إلى ساحة الإعدام . . كما سيق تسعون ألفًا من التركستانيين والصينيين تحت تهديد السلام ليشهدوا نهاية البطل . . ومات البطل عثمان باتور . .

كنت مندسًا بين الصفوف لا يعرفنى أحد فقد ارتديت ملابس محاربى «دون خان» إمعانًا فى التخفى . . كنت أنظر إلى البطل الشهيد وأنا أضحك فى هستيريا، وعيناى مبللتان بالدموع، وأصرخ كالمجنون «يحيا العدل» .

وفى الليل الأسود القاسى القلب توجهت إلى الطريق . . طريق الهاربين من الجحيم . . وبعد ليال قاسية مضنية بلغت حدود

كشمير . . ووجدت بقية البقية هناك . . لم يبق من العشرين ألفًا – الرجال الثوار– سوى ثلثمائة . . لأن العدو طوال الطريق كان يناوش الفارين وينقض عليهم، ويطاردهم بنيرانه فى معارك «سينكرس» و«كوتساو» وغيرهما من مدن التبت . وخسر العدو خسائر فادحة . . ودخلوا كشمير، وكان أغلبهم من النساء والأطفال الذين استشهد آباؤهم . . ووصلنا مدينة «سريناكار» عاصمة كشمير . . وتوافد علينا خلق كثير من المهاجرين التركستانيين . . واختلط الجميع . . كنت فى أمس الحاجة إلى النوم . . لم أستطع المقاومة . . وأغفيت ولا أدرى هل طال الوقت أم قصر . . لكنى تيقظت قبيل المغرب على يد حانية تهزنى برفق . . وفتحت عينى . .

هل أنا فى حلم أم فى يقظة . . يا إلهى ها هى نجمة الليل ترتدى زيًا مشابهًا لزى نساء كشمير . . وطفلى الكبير إلى جوارها إننى أعرف جيداً . . هذا الفتى الجميل الذى لوحت الشمس بشرته الشقراء .

وأخذت أتحسس رأس الطفل، وأربت على وجه نجمة الليل، والدموع تملأ عينى، لم أستطع الكلام فقد خنقتنى الدموع وزوجتى هى الأخرى كانت تنتفض من الانفعال، وتضمنى إلى صدرها، وولدى يطوقنى بكلتا يديه . .

– «لم أكن أتصور أن تنجو من الموت يا مصطفى . . إن الشيب قد صبغ شعرك والتجاعيد ملأت وجهك . . لكأنما مر على فراقنا مائة عام . . » .

قبلت الطفل فى حنان، وهمست بنبرات راعشة:

-«لكم يحزننى أن أترك شعبى المسلم السجين خلف الحدود يقتسمه الأعداء..».

وهمست نجمة الليل وقد ازداد وجهها شحوبًا، واكتسى بحزن وقور لا يريم:

- «إن أمنيتى أن نرحل إلى بيت الله الحرام.. ولنعش فى مكة أو المدينة..».

وتطلعت عبر الآفاق المعتمة ورائى، وتذكرت منصور درغا الذى مات على باب المسجد، وتذكرت الرفاق المؤمنين الذين قضوا نحبهم وراء القضبان، ثم الشهداء الذين سقطوا حول الجنرال عثمان باتور، ويوم المشهد العظيم حينما ساقوا الجنرال إلى ساحة الموت.

وغمغت:

- «سوف نسير إلى بيت الله الحرام.. إن قطرات من ماء زمزم قد ترد روح الضائعين والمتعبين.. إننى أتخيل وأنا أصرخ فى جموع الحجيج مبشرًا بيوم الخلاص.. وكأنى بملايين المسلمين يشقون الأكفان، وينطلقون تحت راية التوحيد ليحرروا من جديد ملايين العبيد...».

تلك قصتى..

●●●